التبرج

تأليف

نعمت صدقي

مع

الحجاب

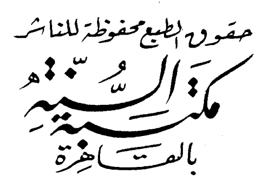
للمنفلوطي

تحقيق

أبي معاذ أيمن بن عارف الدمشقي

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة - بالقاهرة
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م



رقم الإيداع: ٥١١٩ / ١٩٩٧



مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم

القاهرة: ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين «ناصية شارع الجمهورية»
تليفون: ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس: ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب: ١٢٨٩ - الرمز البريدي: ١١٥١١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

آلمني أشد الألم، ما بلغت المرأة من المهانة والازدراء بنفسها، إلى الحد الذي تعرض به جسمها وأنوثتها هذا العرض المخجل في الشوارع والمجامع العامة والشواطئ، ورأيت أن المجتمع بذكوره وإناثه مغض عن ذلك الفساد، بل وراضٍ به، ومغتبط له، ومستمتع به، غير آبهٍ لما يجره ويهوي به في هوي الضلال والكفر بالله وكتابه !

إن وراء ذلك ولابدَّ، طامة كبرى ستحيق بهذا المجتمع، لن ينجو منها إلا الذين يَنهون عن السُّوء، ويصرخون في أولئك الهاوين الغافلين لعلهم يفيقون ويرجعون .

فأمسكت قلمي الضعيف لأحاول أن أنهى عن السوء، وأن أدعو إلى اللّه ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا .

وما إن استعرضت في مخيلتي شتى الصور لتبرُّج المرأة، وتَبَلُّد الرجل، وتجرد الاثنين من الحياء والعفاف في هذا العصر المشؤوم، حتى انفجر بركان غضبي وسخطي لهول ما رأيت، واندلع لهيبه وقذف على الورق بحمم تحجَّرت غلظة وقسوة .

وعدت أراجع دراسة وفحص هذا المجتمع الغارق في لجج الغفلة

والهوى ، السابح في بحر الملذات المحرَّمة ، فإذا بي أعود مشمئزة ، مقتنعة أشد الاقتناع ، أنه لا ينبغي أن أستر كلامي عمن تجرد من ثوب الحياء ، فلم يستر جسمه العاري ، ولا أبالي بسخرية فاسق أو استهزاء من اتخذ آيات الله هزوًا ، واستنكار من لا يستنكرون المنكر ؛ ذلك لأني أعتقد أن الجهالة والوقاحة لابدَّ أن تقابلا بالشدة والصراحة ، ولأن الذي لا يستحيي لا ينبغي أن يُستحيا منه . وليس بعد هذا التبرج وقاحة وجهالة وعدم حياء من الله ومن الناس .

وإن المستغرق في نوم عميق إذا لم يفق بلمسة خفيفة ليتنبَّه ويتَّقي الخطر الذي سيحيق به ، يجب أن يهز هزة عنيفة ، إذا كان هناك شفقة به وعطف عليه ، بل يجب أن يُوكز ويُلكَم إن لم يستيقظ من الهزات وتمادى في نومه وغفلته .

وعجبًا ألا يخجل المسيء من إساءته ، ثم يخجل ويشمئز من وصفها ، فكيف لا نتألم من قبيح نأتيه ونراه ، ونتألم إذا كتبناه وقرأناه ؟

وكيف نستنكر كلمات صريحة ولا نستنكر عورات مكشوفة ؟! أيكون التخيل أظهر من الواقع ، والخيال أوضح من الحقيقة ذاتها .

وقد قيل : « **ليس الخبر كالعيان** »[1] واعجبًا أأستحيي أن أقول

(١) قد صح عن النبي ﷺ بلفظ : « ليس الخبر كالمعاينة » . أخرجه أحمد (١/٢٧١) عن ابن عباس ، وصححه ابن حبان (٦٢١٣) ، والحاكم (٢/٣٢١) ، وقد ذكر محقق الإحسان شواهده .

للسارق : « أيها اللص » وهو لا يستحيي من أن يسرق ، ويغضب من وصفه باللصوصية ؟ فمن منا أولى بالخجل والحياء ؟!

إذا كان الوعظ والتحذير ووصف تبرج النساء وتهتكهن وما يسمعن من مستهجن القول وبذيئه من الكلاب والذئاب في الشوارع تشمئز منه النفوس ، فكيف بالعمل نفسه ؟

معشر الناس !!!

إن كانت الحقيقة مؤلمة جارحة فهل يليق بنا أن نتغاضى ونتعامى عنها ، مهما كانت قاسية جارحة ، لئلا نتألم ؟ أم يجب أن نواجهها ونحتمل قسوتها لنرعوي عما يضرنا ونتهذب ؟

هل من الحكمة والعقل ألا نشرب الدواء لمرارته ، أو نترك الصديد في الدُّمَّل ولا ننظفه خوفًا من أن يؤلمنا ، وألا نمس الجرح ولا نعالجه كيلا نشعر بألمه .

كلا أيها السادة ؛ بل ينبغي أن نطعن هذا الدمل بالمبضع بشدة لننظفه من الصديد ، وأن نكوي الجرح لنطهِّره إذا لزم الأمر ، يجب أن نتواصى بالحق والصبر ، وأن نحاول أن ندخل الحق في القلوب بكل ما نستطيع ، وبأية طريقة شرعية وبكل لهجة ، وليس بعد النصح والإرشاد غاية مقدسة يأمر اللّه سبحانه بها ورسوله ، وتدعو إليها الشفقة الإنسانية الكريمة .

أيها المسلمون : إنكم تتحمَّسون وتثورون من أجل حطام الدنيا ، من أجل جزء من الأرض انتهكت حرمتُه ، ولا تتحمَّسون ولا تثورون من

أجل الدين أو الشرف وقد دِيست كرامتُه . فأيهما أهم وأقدس ، وأيهما أعز وأنفس ، نرى منكم في الهيِّن البسيط الحماس والتفاني ، ولا نرى منكم نحو الأهم الخطير إلا التهاون والتواني . تتقون وتخشون عدوًا من العباد ، ولا تخشون ألد عدو في نفوسكم اسمه « الفساد » ، يقتل النفوس ، فمن منهما العدو الأكبر ، ومن منهما الأخوف والأخطر ؟ ألا فثوروا أيها المسلمون على من امتهن أوامر الإسلام ، وقاطعوا من خرج على الآداب والاحتشام ، وحاربوا هذا الداء الوبيل الذي يهتك ويفتك بالأعراض والأجسام . لقد انتشر بينكم وباءٌ كوباء « الكوليرا » فكيف تسكتون ! وقد كثرت ضحاياه وعمّت عدواه وانتشرت الجثث الحية حوالَيكم ، فكيف لا تجزعون ؟! بادروا إلى إنقاذ أنفسكم وأهليكم من الوباء الفتَّاك ، وقُوهم وعالجوهم بآداب وشرائع الإسلام لينجوا من شر هذا الهلاك .

ولقد منَّ اللَّه عليَّ بالشفاء مِن هذا الوباء الذي كان قد سرى إليَّ من البيئة والغفلة عدواه ؛ فداواني منه ربي سبحانه بمرض أليم في بدني ، أعاد الصحة والعافية إلى رُوحي وقلبي ، فإن الرسول ﷺ يقول : « **إذا أراد اللهُ بعبده الخير عجَّل له العُقوبة في الدنيا ، وإذا أراد اللَّه بعبده الشر أمسك عنه بذَنبه حتى يوافي به يوم القيامة** »[1].

(١) **حسن** : أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) عن أنس ، وقال : حسن غريب .
وله شواهد مذكورة في « مجمع الزوائد » (١٠/١٩٤) ، والصحيحة (١٢٢٠) .

مرضت مرضًا شديدًا بعد خَلع ضِرس ، قاسيت منه آلامًا مُبرِّحة حرمتني طعم النوم والأكل شهرًا كاملًا ، إذ لم يكن يكف طعنُ الألم لحظة ليلًا ولا نهارًا .

وزاد الورم حتى كاد خدي ينفجر ، وامتد إلى عنقي ورأسي وأغلق جفني عيني ، فحار في أمري الجرّاحون والأطباء ، وعجز الطب وعَزّ الدواء ، وقُطع الأمل بتاتًا من الشفاء .

وإذا بيد الله الكريمة تمتد وتمسح المرض ، وتمحو على مهل الجرحَ وتصرف الورم ، فوقف الأطباء مدهوشين من هذه المعجزة وقالوا خاشعين : « حقًا إن اللّه القدير الرحيم ، يحيي العظام وهي رميم » . فعاينتُ تفاهة الخلق ، وعَجز مَن ادَّعى العلم والسلطان ، وأدركت أن الخالق سبحانه أبرُّ وأرحم بعبده من كل إنسان .

وفي أثناء مرضي عادتني سيدة وقالت لي مجاملة : « إنكِ لا تستحقين كل هذا العذاب ، أنتِ السيدة المؤمنة المصلية الحاجة لبيت الله الحرام . فماذا اقترفتِ من الآثام ، حتى يعاقبك اللّه بهذه الآلام ؟ » فصرخت قائلة : « لا تقولي ذلك ، فإن اللّه لا يظلم الناس شيئًا ؛ ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، إني آثمة أستحق هذا العقاب وزيادة ، هذا الفم الذي أدَّبه الله بالمرض والألم كان يُصبغ بالأحمر ، وكان لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ، وهذا الوجه الوارم كان يتجمل بالمساحيق . وهذا

الجسم الطريح كان يتبرج بالثوب الأنيق . وهذه الرأس المتألمة المتأججة بنار الحمّى كانت لا تُحجب بالخمار كما أمر الله ، وهي الآن تحجب قهرًا باللفائف الطبية تحيط بها كالخمار تمامًا ، لم أختمر بخمار الاحتشام ، فخمرني الله بخمار الآلام ! جمّلت فمي ووجهي بالأصباغ والأدهان ، فصفعهما الله صفعة العذاب والهوان » .

أجابتني السيدة قائلة : « إنك لم تفعلي إلا ما يفعله غيرك ، بل وأقل مما يفعله غيرك ، فكل النساء يتبرَّجن ويتجمَّلن أكثر منك ، وها هنَّ يَرتَعنَ في بحبوحة الصحة ، ويَرفُلن[1] في حُلَل السعادة » . فقلت : « هذا من فضل ربي عليَّ ، وحبه لي ورحمته بي ، فإن اللّه إذا أحب عبدًا ابتلاه وطهَّره بعذابه وربّاه . ثم إذا أراد ساق له العافية ونجّاه . ففاز بجزاء الصبر ، وحَظِيَ بفضيلة الشكر ، وسَعِدَ بالتوبة والطهر ، فشكرًا لله على هذا الدرس النافع ، وهذا الألم الشافي الناجع ، وهذا العقاب المؤدب الرادع ، وهذا المرض المهذِّب اللاذع . إن اللّه سبحانه يأمرني بعمله عندما رآني لم أأتمر بقوله ، فكيف لا أشكره على هذه العناية ، وكيف لا أطيع من يرعاني هذه الرعاية ؟! » .

وهكذا شفيت من مرضي ضعيفة الجسم قوية الإرادة ، ضعيفة

(١) يمشين في تبختر وكِبر .

الهوى قوية الصبر والجلادة ، وفهمت ما قاله الله لي بهذا المرض ، وما سكبه في قلبي بلا ألفاظ ، وما صوَّره لعيني فرآه عقلي جليًا واضحًا .

فهمت كيف يجب أن تُحاط رأسي ووجهي بالخمار كما مثله لي اللَّه ، وأن يدعو فمي ولساني إليه شكرًا وخوفًا وطمعًا ، فكنتُ بعد مرضي غير ما كنت قبله ، وكان أعظم نعمة عليَّ جعلتني أقهر هوى نفسي ، وصيرت يومي أغنى وأقنى من أمسي .

ولم تقتصر هذه النعمة عليَّ وحدي ، بل عمَّت بيتي وانتشرت من حولي ، وأنقذت بناتي وكثيرًا من معارفي وأهلي .

والحمد لله على أني تبت إلى اللَّه من قريب ، ولم أصرّ على ما فعلت وأنا أعلم ؛ واحتشمت قبل فوات الوقت ، لا كما تفعل كل النساء اللاتي يحتشمن ويختمرن في وقت لا جُناح عليهنَّ فيه أن يضعن ثيابهن ، فلا يكون تركهنَّ المعصية إلا عن عَجز ، لا عن توبة صادقة ، ومنذ ذلك اليوم عزمت على أن أحارب الفسق ، وأن أجاهد في سبيل الله بلساني وقلمي ، كرَّست لذلك كل ما أستطيع من قوتي ووقتي وفهمي .

نظرت حولي ويا لهول ما رأيت !! رأيت السواد الأعظم من الناس مستغرقًا في نوم عميق ، مهما ابتلاه ربه وألهبه بسوط عذاب وضيق ، لا يفهم ما أراده الله بذلك فلا يرعوي ولا يفيق ، أو كأنهم غير مسئولين عن

ذنوبهم ، أو كأنهم ما يهلكهم إلا الدهر وليس لله يد فيما حلَّ بهم ، أو كأن اللَّه سبحانه ظالمهم في عقابه لهم ، فلو كانوا يفهمون حكمة الله في الابتلاء لانتفعوا بنعمته ، ولو كانوا يشعرون بحبه وخشيته لما استهانوا بنقمته ، ولو كان يؤمنون به لما اجترؤوا على عداوته .

فاحذري أيتها العاقلةُ الغفلة عن آثامك ، وكلما ابتلاكِ ربك ففتشي عما أغضبه واستوجب عقابه ، لتجني ثمرة الابتلاء توبة وتهذيبًا ، واجتهدي أن تتحلي بالفضائل ، وأن تتجردي من الرذائل ، فإن أصابك الله بمحنة لم تكن مجرد عقاب ، بل تغنمي عظيم الثواب ، ولم تخسري بعصيانك ثمرة العذاب ، فإياك أن تحوّلي الأجر إلى قصاص وزجر : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق : ٣٧] .

وإني لأسأل ربي ، الذي من أجل ابتغاء مرضاته وحده سبحانه كتبت ، ومن أجل وجهه الكريم وحده جاهدت ، أن ينفع بهذا الكلام خلقه وعباده ، وأن يجزيني عليه ما هو له أهل من الفضل والإحسان ، إنه سميع ، وبعباده رؤوف رحيم ، وصلى الله على نبيه وسلم أفضل صلاة وأزكى تسليم .

نعمت

حرم الدكتور محمد رضا

التبــرج

التبرُّج : هو إظهار الجمال ، وإبراز محاسن الوجه والجسم ومفاتنهما ، أو كما يقول البخاري رضي اللَّه عنه : « التبرج أن تُخرج المرأة محاسنها »[(1)] .

وأصل التبرج مأخوذ من البروج ، وهي القصور العالية البيِّنة الارتفاع ، فالمرأة المتبرجة تعلن عن محاسنها بإبرازها أو تحديدها ، كما تعلن البروج عن نفسها بارتفاعها .

وحفظًا للمجتمع من ضرر التبرج ، وصيانة لأجسام النساء من التهتك وحيائهن وعفافهن من الفساد ، وإبعادًا لنفوس الرجال من الإغراء والتدهور ، نهى اللَّه العليم الحكيم النساء عن التبرج ، وهو سبحانه الخبير بضعف الإنسان وطَيش الشباب .

فاسمعن أيتها المسلمات أوامر اللَّه لكُنَّ ، إن كنتن حقًّا من المؤمنات : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

(1) ذكره البخاري في تفسير الأحزاب (٨/٥١٩) ، وبيّن الحافظ ابن حجر أنه نقله عن أبي عبيدة ، وقد وقع مصرحًا بذلك في رواية أبي ذر .

أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ [النور : ٣١] .

اعلمن أن الخمار في قوله : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ، هو ما يغطي الرأس والوجه ، والجَيب هو فتحة الصدر مما يلي العنق ، فلا تتغافلن عن أن الله تعالى يأمر كل مؤمنة بأن تغطي صدرَها وعنقها بالخمار ، لا رأسَها فحسب ، إذ يقول : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ .

وهذا صريح جدًّا في وجوب الخمار الساتر لرأس المرأة وصدرها . إذن فمن خلعته فكشفت عن رأسها أو صدرها ، فإنها لم تحترم أمر الله تعالى ، فتصبح بذلك من العاصيات المستهترات بغضبه وعقابه .

تنبهن أيتها المسلمات إلى قوله تعالى : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ . إذ إنه لم يعيِّن زينةً في عضو أو ثوب . فإن ذلك يدل صراحة على أن كل عضو قد يكون فيه زينة وفتنة . وإن المؤمنة التقية هي التي تقدر ذلك خوفًا من عقاب الله وغضبه .

والزينة : هي كل ما يضفي حسنًا وبهجة . (لسان العرب – مادة « زين ») ، ولا يقتصر ذلك على ما تتحلى به المرأة من الحلي والثياب والجواهر ، وما تتجمل به من الأصباغ والأدهان ، بل إن الزينة أكبر الزينة ، ما خلق الله في جسمها من مفاتن وما فطره عليه من تناسق الأعضاء وجمال تناسبها.

« إن اللّٰه قد أنزل هذه الآية وهو يعلم أن من النساء من تتحجب للزينة

والفتنة ، وتتجمل بالخمار لأنها تديره على رأسها مائلًا ذات اليمين وذات الشمال ، وتحليه ببعض الحلية ، أو بإرسال خصلات من شعرها اللامع على جبينها ، أو تجعله على شكل تاج يزيد في جمال وجهها ، حتى ليكون الخمار نفسه زينة للناظرين ، عكس ما أراد الله من جعله ساترًا لزينتها وفتنتها ، وزعمت أنها أطاعت الله واحتجبت كما أمر ، ألا فلتعلم هذه المخادعة أن اللّٰه عليم بما في نفسها من شهوة التجمّل والتبرج ، وأنه لا يخفى عليه ما في قلبها من الاحتيال والمخادعة ، فرغبتها في أن تبدو جميلة ، وأن تحوز إعجاب من يراها ولو بالخمار ، تبرج يمقته اللّٰه ، ومعصية يعاقب عليها ، ولذلك عقَّب قوله : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ ، بقوله : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ ، أي : أن الخمار وحده لا يكفي مع التجمل والتزين » .

ثم تدبَّرن قوله : ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور : ٣١] .

تعلمن أنه تعالى ينهى عن استلفات النظر إلى زينة ، وإن كانت مستورة . فالثوب الفضفاض الذي لا يبدي جمال الجسم يبرز منه شكل الأعضاء باهتزازها في الحركة العنيفة والمشية أو الالتواءة الخليعة ، كما قد يسمع عند الحركة رنين بعض الحلي المستترة .

ثم تدبَّرن قوله تعالى لأزواج النبي ﷺ ، وهن المؤمنات القانتات العابدات : ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ

مَرَضٌ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

تعلمن أن التبرج يكون حتى في الصوت بتكلُّفه ولينه ودلاله .

وهاكم قولَ الرسول ﷺ : « **أيّما امرأة استعطرت ثم خرجت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية** »(١)، وهو يثبت أن التبرج كذلك يكون بتضوع ريحها ، وتعمد لفت النظر إليها بطيب العطر .

وعن أم سَلَمة ، أن أسماء بنت أبي بكر رضي اللَّه عنهم دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها ، وقال : « **يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يُرى منها إلا هذا وهذا** » - وأشار إلى وجهه وكفيه(٢) .

---

(١) **حسن** : أخرجه الترمذي (٢٧٨٦) ، والنسائي (١٥٣/٨) عن أبي موسى . وقد صححه الترمذي ، وابن خزيمة (١٦٨١) ، وابن حبان (٤٤٢٤- الإحسان) ، والحاكم (٣٩٦/٢) .

(٢) **ضعيف** : أخرجه أبو داود (٤١٠٤) من طريق خالد بن دُريك عن عائشة ، ونبه على أنه لم يسمع منها ، هذا مع ضعف السند إليه .

وأخرجه البيهقي (٨٦/٧) من حديث أسماء بنت عميس ، وضعفه .

وقد ضعف الروايتين ابن التركماني في « الجوهر النقي » .

ولم يرد الحديث من رواية أم سلمة ، واللَّه أعلم ، ثم ليت الذين يتمسكون بهذا **الحديث** - وينفون النقاب - يطبقون ما فيه ، خاصة غض البصر ، فالنبي ﷺ **يغض بصره عن أسماء** مع صغر سنها ، وهي ابنة صاحبه الصدّيق ، وأخت زوجته عائشة ، مع نهيه عن المنكر .

فتدبروا يا أولي الألباب آيات اللّٰه وحديث رسوله . واعقلوا ما فيهما من حكمة وأدب ، واعرفوا هذا الاحتياط الشديد ، وهذا الحذر في الابتعاد عما يدعو إلى الزلل ، فما أحكم هذا الحرص الذي يأمر المرأة بأن لا تمتع غير عين زوجها بجمالها ، ولا أذنًا غير أذنه بحلو حديثها ، ولا أنفًا غير أنفه بشَذَا عَبيرها ، ولا خيالًا إلا خياله بما تخفيه من زينتها وحليّها ، لتكون بذلك في حصن حَصين ، وسياج من الصون متين أمين ، بعيدة عن أنظار الفجرة الفاسقين .

فزينة المرأة وظهور جمالها بين الرجال غواية وإغراء ، وشرارة تضرم ما كمن وخمد في نفوسهم من شهوة حيوانية ، كما أن رؤية الطعام وشم رائحته يوقظان الشهية ، فالعين هي زناد الشهوة ، والنفس لا تشتهي إلا ما تقدم العين لها ، ولذلك أمر الله تعالى الرجال بأن يغضوا من أبصارهم ، وأتبعها بقوله تعالى : ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ .

وكذلك أمر النساء بأن يغضضن من أبصارهن وأتبعها بقوله : ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ .

ومعنى ذلك أن النظر بريد الزنى .

ما بال الناس غفلوا ، وخادعوا أنفسهم ، فزعموا أن التبرج قد أصبح أمرًا عاديًا مألوفًا ، لا يؤثر في الأخلاق ، ولا يثير دفائن الشهوات ، ولا يوقد نار المحرم من اللذات ، أما إنهم لو عقلوا لعلموا أن هذا الزعم باطل ومحال ولا شك ، فإنه لو كان الأمر كذلك لصدق في حالة الزوج مع

زوجه ، ولانقلبت المودة بينهما عداوة ، والشوق نفورًا ، ولأصبح كل من الزوجين حريصًا أن يغير زوجه بعد لأي من الزمن ، فهل هذا هو الواقع ؟ أبدًا فإن الرجولة هي الرجولة ، والأنوثة هي الأنوثة ، وإن الجاذبية بين الرجل والمرأة هي الجاذبية الفطرية ، لا تتغير مدى الدهر . وهي شيء يجري في عروقهما وينبه في كل من الجنسين ميوله وغرائزه الطبيعية ، فإن الدم يحمل الإفرازات الهرمونية من الغدد الصماء المختلفة ، فتؤثر على المخ والأعصاب وعلى غيرها من الأعضاء ، بل إن كل جزء من كل جسم يتميز عما يشبهه في الجنس الآخر ، ولذلك تظهر صفات الأنوثة في المرأة في تركيب جسمها كله وفي شكلها ، وفي أخلاقها وأفكارها وميولها ، كما تظهر مميزات الذكورة في الرجل في بدنه وهيئته وصوته وأعماله وميوله . وهذه قاعدة فطرية طبيعية لم تتغير من يوم خلق اللّه الإنسان ، ولن تتغير حتى تقوم الساعة : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة : ٣٧- ٣٩] .

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم : ٣٠] . ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر : ٤٣] .

لقد حذر الله المؤمنين والمؤمنات مما يثير شهواتِهم وشهواتِهن ، فلم يشدد التحذير من الزنى فحسب ، بل مما يدعو إلى الزنى ، فقال : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

يريد سبحانه وتعالى بذلك أن اجتناب عمل الفاحشة ليس هو كل ما يجب على المؤمن والمؤمنة ، بل ينبغي أن يبتعد كل منهما عما يقوده إلى الزنى من مغريات ، وألا يقرب مما يحيط به أو يدني من متعة العين ولذة البصر أو الأذن أو أي حاسة من الحواس الأخرى ؛ لأن من يقترب من التيار الجارف لابدَّ أنه غارق فيه ، ولابدَّ هالك مهما قويت ذراعاه ، ومهما بَعُدَ باعه في السباحة ومغالبة الأمواج ، فالتيار الشديد يجذب إليه الأجسام الطافية التي تحوم حوله وتتعرض له فيجترفها وما هي إلا لحظات ومحاولات فاشلة حتى يبتلعها .

وقال رسول الله ﷺ : **« العينان تزنيان وزناهما البصر »**[١] ، وقال أيضًا ﷺ : **« ثلاث أعين لا تمسها النار : عين غضَّت عن محارم اللَّه ، وعين حرست في سبيل اللَّه ، وعين بكت من خشية اللَّه »**[٢] .

نفهم من ذلك أن تمتع النظر ضرب من الزنى ، وحظ عظيم من

---

(١) **متفق عليه من حديث أبي هريرة** : البخاري (٦٢٤٣) ، ومسلم (٢٦٥٧) .

(٢) أخرجه الطبراني (٤١٦/١٩) عن معاوية بن حيدة مع تقديم وتأخير ، وفيه : « وعين كفت عن محارم اللَّه » . وقال الهيثمي (٢٨٨/٥) : أبو حبيب لم أعرفه وبقية رجاله ثقات . اهـ

وفي الباب : عن أبي هريرة مرفوعًا : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم اللَّه » . أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٣/٣) وغيره ، وسنده ضعيف جدًّا كما في السلسلة الضعيفة (١٥٦٢) .

اللذة ، وجزء مهم من تمتع الرجل بالمرأة ؛ لذلك فهو يمتد ويصبو إلى الجميلة ، وينفر من الدميمة ، وهما في الأنوثة سواء .

ولذة النظر متعة عظيمة للإنسان ، فكم أنفق الناس من النفقات الباهظة لتتمتع أنظارهم ، فزينوا البيوت والسقوف والجدران ، وأنشؤوا الحدائق ونسقوها بأشجار وأزهار ، وأثثوا ديارهم بفاخر الرِّيَاش والأثاث الذي يلذ العين ويمتع البصر وهم لا يلمسون ، ولكنهم يتلذذون بأبصارهم ، فلذة العين تشترك في كل لذة ، حتى لذة الأكل ، ولذلك يقال : العين تأكل أكثر من الفم ، بل إن النظر إلى الأكل الشهي يكفي وحده لبدء إفراز العصارات الهاضمة في المعدة . فإن كانت العين تتلذذ بمنظر المآكل والفواكه الشهية أكثر مما يتلذذ الفم بطعمها ، فكيف بتلذذها في التهام الجمال ، ولحم ذات الحسن والدلال . فينبغي للمسلم أن يلجم عينيه بلجام الحياء والعفاف حتى ينجو من الزلل . فالشهوة لا تصحو إلا إذا أيقظها ، ولا تنتبه إلا إذا دعاها .

والمرأة المتبرجة شرارة للزناد تغوي بجمالها العباد ، وتنشر من حولها الفساد ؛ لأن كثيرًا ممن يرونها ، ضعاف عزاب في سن الطيش تتحكم فيهم رعونة الشباب ، تتضور نفوسهم جوعًا عند رؤية لحمها كالذئاب ، فيبحثون عما يشبع نهمهم ولو كان جيفة منتنة ، فيتهافتون عليها تهافت الذباب ، فالويل لها من شيطان رجيم ، تأخذ الرجال إلى نار الجحيم . فلو احتشمت المرأة واجتنبت التبرج والخلاعة في كلامها ومِشيتها لما انتشر

هذا الفساد والشر المستطير ، إذ من المحال أن تصان الأعراض وكرامة الأسر إلا بالاحتشام والغض من البصر . فكم من نظرة جرّت الخراب والشقاء ، وفرقت بين الأزواج ، وأشقت الأبناء . وأصل البلاء كله نظرة ، كما قال الشاعر :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وقال آخر :

كل الحوادث مبداها من النظر ومُعظمُ النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتَكَت في قلب صاحبها فَتكَ السهام بلا قَوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يُقَلِّبُها في أعين الغِيد[1] موقوفٌ على الخطر
يسرُّ مُقلته ما ضَرَّ مهجته لا مرحبًا بسرور جاء بالضرر

كل امرأة خرجت من خدرها إلى الطرقات عروسًا قد أخذت زخرفها وازينت لسان حالها يقول :

ألا تنظرون إلى هذا الجمال ؟! هل من راغب في القرب والوصال ؟ إنها تعرض جمالها في أسواق الشوارع كما يعرض التاجر المتجول سلعته ، وكما يعرض بائع الحلوى ما عنده مزينًا بالألوان الزاهية والأوراق اللامعة ، ليسترعي الأنظار ويغري النفوس ويثير الشهية ، فتروج بضاعته ويكثر المشترون ويتهافت الطلاب والجياع النَّهِمون .

---

(١) سيأتي تعريفه ص ٥١ .

كيف تقبل المرأة المصونة العفيفة عرض جمالها في السوق سلعة رخيصة تتداولها الأعين ، وكيف يرضى لها حياؤها أن تكون مبعث إثارة شهوة في نفس كل رجل يراها . بل كيف تطيق الشعور بأنه يصبو إليها ويتمناها !! إنها لو فكرت في ذلك الأمر برهة لاحمرت خجلًا ، ولسترت جمالها وزينتها عن الأعين الشرهة الوقحة .

قال اللّه تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٩] .

يحيط الله المرأة المؤمنة في هذه الآية بهالة من الصون والكرامة ، وأن تكون في إطار من الإجلال والإكبار ، فأمر نبيه ﷺ بأن يلزم نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن ، والجلباب : الثوب الواسع ؛ أي أن يتسترن بثيابهن الواسعة ليعرَفن بالحصانة والتقوى والعفاف ، فلا يُؤذين بأعمال سافلة ، دنيئة ، ولا تنغص حياتهن بنظرات وقحة جريئة ، ولا توجه إليهن أقوال مهينة بذيئة .

فباللّه ماذا سترت نساء من يدَّعون الإسلام الآن من زينتهن التي أمرن بسترها إذا كن هكذا في الطريق ، عاريات الأذرع والسيقان والصدور ، باديات النهود والأرداف والخصور ، مصبوغات الوجوه والعيون والثغور ، حاسرات الرؤوس مسترسلات الشعور . ماذا تركت الشريفة لغيرها من فنون التبرج ، وما أبقت لنفسها من ضروب الاحتشام ، إنها لم تترك من

ذلك ولم تبق شيئًا . فباللَّه أيتها السيدة المحترمة أتستطيعين أن تفرقي ما بين الراقصة الخليعة الفاجرة ، وبين السيدة الشريفة الطاهرة ، لذلك تطارد الذئاب الشريفة كغيرها ! إذ يظنونها صيدًا وقَنيصة ، فتسمع وترى ما يخجلها ويؤذيها ؛ لأنها تشبهت بمن لا كرامة ولا شرف لها ، ولم تتعزز وتتحصن بوقار الاحتشام . فضاعت عزتها وظنوها سلعة كبقية السلع ، وعرضت نفسها للمهانة والازدراء !

فيا حسرتا على النساء ! لقد فقدتِ أيتها المسلمة احترامَك عندما خلعت الخمار ، وارتديت ثوب الخلاعة والاستهتار ، فَنُظِرَ إليكِ بعين الازدراء والاحتقار .

الخِمار : شعار التقوى والإسلام . **الخِمار** : برهان الحياء والاحتشام . **الخِمار** : سياج الإجلال والاحترام . **الخِمار** : يا سيدتي المسلمة أشرف إكليل لجمالك ، وأعظم دليل على أدبك وكمالك .

صوني أيتها الشريفة المؤمنة جسمك الطاهر من اعتداء الأعين الزانية ، وحصِّنيه بالاحتشام لتذودي عنه السهامَ الغازية ، فليست الشريفة الطاهرة مَن لا تسمح لرجل أن يتمتع ببدنها وأن يلامسه ، بل الطاهرة الحقة هي التي لا تسمح لعين أن تقع على جسمها الطاهر فتدنسه ، والتي لا تطيق نظرة آثمة تنتهك طهارتها المقدسة . فإن للعفاف والطهارة درجات ، كما أن للتهتك والعَهر دركات . فهناك عاهرة يتمتع بها الرجل ببدنه ، وهناك عاهرة يتمتع بها الرجل بعينه .

والنفوس تتفاوت علوًّا على درجات طهارتها وعفتها ونزولًا على دركات عهارتها وشراهتها . فهناك نفس عفيفة شريفة يصونها الحياء تتألم لنظرة جريئة ، فتختمر احتفاظًا بهيبتها ، وتحتشم وتستتر حرصًا على كرامتها ، وإشفاقًا من أن يكون جمالها مطمع الأنظار ومطرح أقذار الأفكار ، وهناك نفس خبيثة غاوية ، مستهترة عابثة لاهية شرهة ، تنعم وتسعد بأن تعانقها وتداعب بدنها الأنظارُ ، وتبتهج بأن تكون شهوةَ النفوس ومتعة الأبصار ، فتبالغ في استعراض جسمها وأناقتها ، وتغالي في التبرج والخلاعة طلبًا للذتها ، هذه هي نفسية المتبرجة الشرهة ، التي تعتبر في نظر المدنية الكاذبة امرأة راقية ، ولكن هل هي في نظر الإسلام مسلمة أو عفيفة طاهرة ؟

لو أن المتبرجة تأملت بعين بصيرتها ، ولو كان لها قلب يعي لوجدت أنها – باصطناعها هذا الجمال المزور ، ومبالغتها في التزين – لا تكتسب في الحقيقة جمالًا ولا محاسن ، بل إنها لتمسخ وجهها وتخفي ما حباها اللّٰه به من الجمال الفطري ، بقناع من الأصباغ الزاهية التي تختلف وتشذ عن الطبيعة ، وينبو عنها الذوق السليم ؛ وهي لا تأبه لذلك ولا تفطن لما صنعت بوجهها من التشويه والتقبيح ، فإن اللّٰه تعالى لم يخلق جفونًا زرقاء لامعة ، ولا سوداء قاتمة إلا في القردة والكلاب ، ولا شفاهًا حمراء قانية ، كأنها ولغت في الدم المسفوح ، ولا خدودًا مضطرمة متوهجة الاحمرار ، ولا حواجب هلالية لامعة تذكر بما يتخيلون

ويصفون في الأساطير من حواجب الشياطين ، ولا أظافر مدببة حمراء كأنها مخالب حيوان كاسر مخضبة بدماء فريسته ، فبالله هل هذا جمال أم دمامة وبشاعة ؟! وما أصدق قول الشاعر :

قل للجميلة أرسلت أظفارها   إني لخوفي كدتُ أمضي هاربا
إن المخالب للوحوش تخالها   فمتى رأينا للظباء مخالبا
بالأمس أنتِ قصصت شعرَكِ غِيلةً   ونقلتِ عن وضع الطبيعة حاجبا
وغدًا نراكِ نقلتِ ثَغرَكِ لِلقَفَا   وأزحتِ أنفَكِ - رغم أنفِكِ - جانبا
من علَّم الحسناء أن جمالها   في أن تخالف خَلقها وتُجانبا
إن الجمال من الطبيعة رسمه   إن شذَ خطٌّ منه لم يَكُ صائبًا

فلِمَ هذه المبالغة المشوهة للخلق الذي جعله الله في أحسن تقويم ، فكل شيء زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وإتقان الجمال إنما يكون بمحاكاة خَلق الله سبحانه ، الذي أتقن كل شيء ، وأحسن كل شيء خلقه ، ولن يكون أحد أحذق ولا أبدع منه تصويرًا ولا أدق منه تجميلًا ، ولا أحسن منه تنسيقًا ، فهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

فالمصوِّر البارع هو الذي يقلِّد بإتقان خلقَ الله ، ويحاول أن يحاكي الطبيعة كاملة من كل نواحيها المتناسقة ، فإذا بالغ أو غيَّر في لون من الألوان ، أو وضع جزءًا مكان جزء آخر أفسد عمله .

فكم من سيدة شوَّهت جمالها بالمبالغة في التجمّل ، وكم من سيدة

أظهرت عيوب وجهها بالأصباغ ، فزادت الدمامة وضوحًا ، وهتكت عيوب جسمها بالملابس الضيقة القصيرة ، فاستلفتت الأنظار إليها . وكم من عجوز متصابية تزيّنت وتجمّلت ، صارت سخرية الناس ، وهي تظن أنها بعملها هذا قد صغرت سنًا ، ولا تدري أنها في الحقيقة صغرت عقلًا وقلّت احترامًا .

ألا فاعلمن أيتها السيدات أن الأصباغ والزينة تزيد الدميمة دمامة ، وتزيد العجوز شيخوخة ، وأن الجمال الحقيقي إنما هو جمال النفس المهذبة التقية ، يشع من العيون ، ويتدفق على الوجه ، فيكسوه جمالًا ، وجمال الحياء يتألق ، ويغمر الوجه نورًا وبهاءً ينفذ إلى القلوب ، ويبهر الأبصار . فكم من وجه جميل يغشاه الخبث والوقاحة فتُظلم بهجته . وكم من عيون جميلة الشكل ، يعلوها صدأ الجهل والغباوة أو ينتابها مرض التبجح والوقاحة ، فيطمس بريقها ، ويطفئ نورها ، ويتحوّل جمالها قبحًا . وكم من وجه دميم يزهو ويسطع بنور التقوى والعلم والأدب .

فكيف تفضلين أيتها المسلمة أن تكوني أنيقة خليعة فاتنة ، على أن تكوني محتشمة محترمة مؤمنة ؟ كيف تقدمين جمال جسمك وهندامك ، على جمال نفسك واحتشامك ؟ كيف يهون عليك أن تخفي نور الإيمان في وجهك بغشاء من التزوير ، ونقاب من الكذب والتزييف ؟ كيف تستبدلين جمال الحياء والخفر بقناع من الوقاحة ؟ إن المرأة التي تواجه الرجال متوقحة بأصباغها مستعرضة لزينتها ولحمها ، قد

تجردت من ثوب الحياء ، ففقدت بذلك أكبر جاذبية في جمالها وأجمل زينة لوجهها . فجمال احمرار الحياء على وجه المرأة لا تجاريه الأصباغ . وإن يد الإنسان لتعجز عن أن تقلد جمالًا ، فطره الله في الروح ، لا على الظاهر .

قال الأديب الفرنسي الشهير فكتور هوجو : « إن أجمل فتاة هي التي لا تدري بجمالها » .

فإذا كانت أجمل فتاة هي التي لا تدري بجمالها ، كانت بلا ريب أقبح فتاة هي المفتونة المغرورة بجمالها ، الخليعة المخلوعة المفككة الأوصال والمفاصل ، تَتَلوى زَهوًا وعُجبًا ، وتتمطّى اختيالًا وكِبرًا ، ويبدو في حركتها ومشيتها الطيش والتكلُّف ، وفي نظرتها التبجح والتعجرف ، وفي كلامها التدلل والتظرف ، فتفوق الدميمة دمامة ، مهما كانت جميلة ، فكيف بها لو كان جمالها طلاء موهومًا ، وحسنها مصطنعًا تافهًا مزعومًا ؟!

فهؤلاء الجاهلات المغرورات بنفوسهن ، الغافلات عن عيوبهنَّ يغضبن عليهن الله بتبرجهنَّ ، فيظلمن أنفسهنَّ في الآخرة ، ويُضحكن منهنَّ الناس ، فيظلمن أنفسهنَّ في الدنيا .

نعم ؛ أليس من المضحكات المبكيات ، أن ترى العجوز السمراء الشمطاء تردم بالمسحوق الأبيض حفرًا وأخاديد وجهها الذي أكل عليه الزمان وشرب فيصبح كالمستنقعات ، كتلًا من الملح ، حوَّلها الماء الآسِن

المختلط بالتراب ؟ وذات الشفتين الغليظتين ، والفم الذي تقع ساحته على مشارق الوجه إلى مغاربه تحدد طوله وعرضه بالأصباغ ، وتبرز اتساعه وضخامته ، وتستلفت الأنظار إلى مساحته الشاسعة ؟! وذات الشعر القَطَط والمنفوش ، تخرج حاسرة وهي تحمل فوق رأسها غابة عذراء كثة الأدغال ، كثيفة الظلال ، تضل في غاباتها وظلماتها العيون ؟! والتي ترسم بالأصباغ حول عينيها الجاحظتين ، وفوق جفنيها البارزين كجفون الضفدع هالة سوداء أو زرقاء لامعة ، فتبرز عيوبها بدهن تلك القباب الشامخة ؟! والتي تحسر ثوبها لتفزع الناس بساقيها الوارمتين ، أو ساقيها النحيلتين اللتين تذكران برُقَّاد القبور والعظام النخرة ؟! والسمينة المترهلة التي تلبس الثوب الضيق اللاصق على جسمها ، المحدد لكل عضو من أعضائها الهائلة ، لتخيف الناس بجبالها الشاهقة ، ووهادها السحيقة ، ووديانها العميقة ؟!

فما أجهلَك وأشقاك أيتها المرأة المغرورة الطائشة ، التي تأتي المنكر ، لتُزدرى وتُستَنكر ، والتي تقترف المعصية لتصير سخرية . وما أصدقَ قولَ رسولِ الله ﷺ : « **النساء ناقصات عقل ودين** »[1]. فكلما نقص عقل

(١) لا يعرف بهذا اللفظ ، وإنما ورد بلفظ : « وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن » .

وورد من حديث أبي سعيد الخدري : أخرجه البخاري (٣٠٤) ، ومسلم (١٣٢/٨٠) ، ولم يسق لفظه . وأخرجه مسلم (١٣٢/٧٩) عن ابن عمر .

المرأة زاد تبرجها . وكلما زادت جهلًا ، أفرطت في تزينها وتهتكها ، وفرطت في جنب الحياء ، وتمثلت بنساء الجاهلية الأولى ، كما قال الله سبحانه وتعالى وهو أصدق القائلين : ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

وما أحكم المثل الذي يقول : « الرأس الفارغة تحتاج إلى الزينة ، أما الرأس المملوءة بالعلم فإنها لا تحتاج إلى الزينة » ؛ لأن العلم يزينها ، وهو أعظم وأجمل زينة .

فالمرأة الخالية من جواهر العلم الصحيح كالصندوق الفارغ ، تنحصر عنايتها في صَقل خارجه وطلائه لاستلفات الأنظار إليه ، فتقضي سحابة نهارها بالتبرج والتطرئة ؛ إذ ليس لها ما يشغل قلبها غير ذلك ، وهي ضيقة الخيال ، لأنها محصورة في دائرة واحدة ، دائرة بدنها وبطنها . بينما المتعلمة كالخزانة شحنت بالجواهر واللآلئ فباتت لا تعبأ بظاهرها ، بإزاء ما فيها من التحف ، وأثمن ما في الوجود ما لا تقع عليه العين ، بل تقدّره البصيرة المشرقة ، من الآداب والأخلاق الكريمة ، فالذي صندوقه فارغ يُعنى بظاهره ، والذي صندوقه ملآن يُعنى بما فيه من النفائس ، ولذلك نرى الأساتذة وأهل الفن والعلم الصحيح يتبسَّطون في لباسهم ، ولا يعنون بأناقتهم وهندامهم ، لأن الإنسان كلما عُني بعقله ، أهمل جسده ، وكلما اهتم باللُّب ، احتقر المظاهر الخارجية فالمرء بأصغَرَيه[1] ، لا بِبُردَيه ،

(١) الأصغران : القلب واللسان .

مِعطفه و(فستانه) . وقد قال الشاعر :

أقبِل على النفس واستكمِل فضائلَها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ

وآيةٌ أنَّ التبرج نتيجة الجهل والطيش وصغر العقل : أن الطفل يعشق التبرج ويزدهي ويباهي بثيابه الجديدة ، ويطيل النظر في المرآة كما تفعل المتبرِّجة ، ولكن الطفل لا يلبث أن ينسى جماله ، وزينته . أما هي فتقضي حياتها في المرآة ، وتحرص على ملازمتها في كل لحظة مِن حياتها ، فتأخذها معها في حقيبة يدها أينما ذهبت لتتمتع بالنظر إلى جمالها ، ولتراقب أصباغ وجهها ، فهي قائمة على قدم الاستعداد لتبادر إلى إسعافه بالترميم مُثابِرة على فرائض التجمل ، تُكرِّس له جُلَّ وقتها في خضوع وخشوع ؛ لأنها تجد فيه متعة نفسها الضئيلة ، ولذة عقلها الصغير .

وإنه ليشق على المرأة الطائشة أن تستر جمالها المصطنع ، ويؤلمها أشد الألم ألا تفتن الناس بمحاسنها وأناقتها ، وتترقب كلمة الاستحسان من السفهاء ، فتطربها فرحًا ، وترقص لها طربًا ، وأعجب العجب أن تحذو حذوها وتعمل عملها مثقفةٌ متنورة متخرجة من الكليات ، حاملة لأعلى الشهادات ، فتتغافل عن أمر الله وتتبرَّأ من الخِمار وتبيح لنفسها ما حرَّم ربها ، مستهترة بغضبه ، متعمدة مصرة على اتباع هواها : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص : ٥٠] .

فويل لهذه المتعلمة المتجاهلة التي لا تستطيع أن تعصيَ هواها وتستهين بأن تعصي خالقها ومولاها، وتسمع آيات اللّٰه وتفهم أمره المؤكد بالاحتشام والاختمار، ثم تصر على تبرجها مستكبرة، كأنها لم تسمعها: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧، ٨].

أو تظن هذه المتغافلة أن اللّٰه جعل إليها الاختيار في شرائعه بما تهوى لها نفسها؟ فتختار منها ما تشاء وتعصي منها ما تشاء، وكأنها في سوق خردوات تنتقي منه ما يوافق هواها، وتترك ما لا يوافقه؛ إذ تطيع بعض أوامر الكتاب وتعصي البعض الآخر، ألم تسمع وعيدَ الله لها ولأمثالها في قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

إن اللّٰه لم يجعل الشرائع والأوامر تبعًا لأهواء الناس ومزاجهم، وهو القائل جل جلاله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وإنه سبحانه لم يجعل لأحد من المؤمنين والمؤمنات أن يختار برأيه وهواه، وإلا كان عاصيًا ضالًا ضلالًا مبينًا، إذ قال جَلَّ ذِكرُه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فهذه الظالمة لنفسها – التي عرفت الحق ، ورأت نوره فأغمضت عينيها ، وأشاحت بوجهها عن هذا النور ، ونأت عنه لتظل في الظلام باختيارها – قد غلبت شهوتها على إرادتها ، وطغى هواها على تقواها ، ولذا جرؤت على معصية الله على علم ، وتغافلت عن أمره على فهم ، وسعت إلى رضى الفاسقين ، ولم تكترث لرضى رب العالمين ، تلك التي ينطبق عليها قول الله جلَّ جلاله : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

نعم ؛ إن التبرج هوى سيطر على النفوس ، واستعبد القلوب ، وأعمى بصائر النساء والرجال معًا ، هوى خضع له – صاغرًا – المتعلم المتنوِّر كما خضع له الجاهل المتبلد ، وخضع له المسلم المتديِّن كما خضع له الفاسد والملحد ، انقاد له الجميع بلا تردد ولا تورُّع ولا تأمل ، بل في امتثال واستسلام ونشوة ولذة ، أسكرتهم خمرتُه ، وسلبت نهاهم فتنتُه ، فتغاضوا عن تحريم اللَّه له وأباحوه وانتحلوا المعاذير واختلقوا له المزايا ليبرروه :

١ – فمِن قائلة : إنه من الصغائر .   ٢ – ومن قائلة : إنه عنوان المدنية .

٣ – ومن قائلة : إنها لا تستطيع مخالفة غيرها فتضع نفسها موضع السخرية والنقد .

٤ – ومن قائل : إنه أقرب سبيل للتعجل بزواج بناته .

٥- ومن النساء من ادعت أنها تتجمل طاعة لزوجها وحرصًا على إرضائه ، وخوفًا من انصرافه عنها إلى غيرها .

٦- ومن ادعت أنها صغيرة السن ولم يَجِن - بَعدُ - وقتُ الاحتشام .

٧- ومن ادعت أنها عجوز لا يعبأ بها أحد .

٨- ومن ادعت أنها تبيح لنفسها السفور والأصباغ لأنها دميمة ينفر الرجال من منظرها .

ولعب الشيطان ببعضهم فادعوا أن الحجاب لم ينشأ إلا في زمن العباسيين أو في زمن العثمانيين ، وكأن القرآن في نظرهم نزل على هارون الرشيد أو على السلطان عبد الحميد .

وهكذا خدع كل منهم نفسه ، وتغافل عن ذنبه ، وأصر على معصية اللَّه ، وهو يعمل ليرضي هواه !!

فالمرأة المتعلمة أقدر النساء على الجدل ولو بالباطل ، ينطبق عليها قول الله تعالى : ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ [الكهف : ٥٦] .

فهي تجادل وتعارض وتحاور وتداور ، وتسمي تقوى اللَّه جمودًا وتطرفًا ، وتعتبر الاحتشام والاختمار تزمتًا ، كأنها لم تعرف الإسلام ولم تفهم القرآن ، إن المسلمة المتنورة بتعاليم دينها ترى أن من أوجب

الواجبات عليها أن تحارب الفجور والعصيان وأن تنهى عن المنكر ، وأن تحاول أن تنقذ نفسها وبنات جنسها ووطنها ودينها من الخروج على آداب الإسلام ، وأن تدعو إلى اللَّه ربها بما وهبها من بلاغة اللسان ، وقوة المنطق ، وبراعة القلم شكرًا له على ما آتاها من هذه النعم العظيمة ، إلا أن أولئك المتعلمات الغافلات يعلمن ظاهرًا من الحياة الدنيا ، وهنَّ عن الآخرة غافلات ، ولذلك يرين الكبائر صغائر ، وأن حسناتها الكثيرة - من صلاة وصدقات وحج وصيام - ستمحو هذه الذنوب ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات .

ألا فاعلمي أيتها المستهينة بأمر الله ، المستخفة بغضبه ، المستهترة بعقابه ، اعلمي أن كل ما نهى اللَّه عنه في القرآن فهو من الكبائر ، خصوصًا هذا التبرج الذي شدد اللَّه فيه الوعيد والتحذير ، وشدد فيه الرسول ﷺ أعظم التشديد ، فزعمك هذا باطل .

ألا فتيقَّني أن التبرج هادم لكل الحسنات ، بل وهادم لحقيقة الإسلام ، وهو إثم من أكبر الآثام ، ففكري أيتها السيدة كم مرة أتيت هذا الأمر الكبير ، وكم أظهرتِ من عورة ، وكم هتكتِ من حرمة ؟ وكم أيقظت من عين شرهة التهمت لحمك وتمتعت بجمالك ، وكم من نفس مجرمة تلهَّفت عليك ؟

اجمعي يا سيدتي هذه الآثام في كل خروجك ونزهاتك طوال حياتك ، فستجدين وِزرًا ثقيلًا تنوئين تحته ، ولا تستطيعين حمله يوم

الحشر ، إنك تستصغرين كبير الإثم ، وهو ذنب آخر مع الذنب نفسه ، فإن من يستصغر الذنب يكبر إثمه على قدر استصغاره له ، وإن في تصغير الذنب تصغيرًا لأمر الرب ، وفي تعظيم الذنب تعظيم الرب سبحانه وتعالى . وفي الحديث :« **المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كالذباب وقع على وجهه فأطاره** »[1] .

إن الحسنات إنما يذهبن السيئات مع الندم والتوبة ، أما مع الإصرار على المعصية ، والجرأة والاستهتار بالسيئات فإن السيئات عندئذٍ هي التي تذهب بالحسنات وتحرقها حرقًا ، قال اللَّه تعالى : ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان : ٧٠] .

فكيف يهون على المسلمة العاقلة المتعلمة أن تحبط عملها ، وتخسر حسناتها ، وتضحي بسعادتها الأبدية ، من أجل شيء تافه ولذة وقتية ، بل ليس هناك لذة ، إنما هي تعب مُضنٍ ومَضيَعة للوقت والمال في الفسوق والضلال .

فيا لهذه المتبرجة من ضالة غافلة ، تبيع الجنة بثمن بخس وتشتري الجحيم بثمن غالٍ ؛ لأن المواظبة على هذا التبرج والتجمل تتطلب مالًا كثيرًا وصبرًا ووقتًا طويلًا ، أكثر مما تتطلَّبه عبادة اللَّه سبحانه ، ولكن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٨) بنحوه موقوفًا على ابن مسعود .

قاتَل اللَّهُ الهوى والغفلة ، فلقد تمكَّن منها الشيطان ، الذي حبَّب إليها الفجور والعصيان ، وكره إليها الطاعة والإيمان ، فكم ضيّعت الصلاة من أجل قليل من الأصباغ على وجهها ، وتنسيق شعرها ، فلا تتوضأ لتحافظ على الزينة ، ولا تحافظ على الصلاة ، بل إن صلاتها على كل حال حابطة ؛ لأنها لم تنهها عن هذا المنكر ، قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

وكما قال رسول الله ﷺ : « **من لم تنهه صلاته فلا صلاة له** »[1] .

وهي تضيع كذلك صومها ؛ لأن الرسول ﷺ يقول : « **مَن لم يَدَع قولَ الزُّور والعملَ به فليس للَّه حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامه وشرابَه** »[2] .

وهل أعظم من التبرج زُورًا وضلالًا وإصرارًا على العصيان ؟ ألم تسمع هذه المتبرجة المتعلمة المتنورة ما يثبت أن العصيان يبطل الأعمال في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٣] .

فكيف نجرؤ على العصيان ، فنبطل أعمالنا ، ونفقد حسناتنا ، ونحن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/٤١٤) ، من حديث عمران بن حصين بلفظ : « من لم تنهه صلاته عن الفشحاء والمنكر فلا صلاة له » . وإسناده ضعيف . وانظر : « السلسلة الضعيفة » (رقم ٩٨٥، ٢) .
والمقصود أن الأعمال وإن سقطت عن المكلَّف ، فإنه قد لا يثاب عليها .
(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٣) عن أبي هريرة .

نفهم معنى الآية الكريمة ، ثم نزعم بعد ذلك أننا تعلمنا وتثقَّفنا ، وأننا آمنا بالقرآن ؟! وكيف نقرأ في القرآن أمر مولانا وخالقنا ورازقنا : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ .

ثم نجسر على مخالفة أمره مستهينين مستهترين ، ولا نخشى غضبه ، ونزعم أننا نعقل ونعرف مصلحتنا ونفعنا ، وأننا على جانب عظيم من الحكمة والحصانة والتنوُّر والتمدُّن !

حقًّا إن من العلم جهلًا ، وإن من لم يستنر بنور القرآن ، يتخبَّط في ظلمات الضلال ، ويَرْسُف في قيود الجهالة[1] ، بالرغم من حصوله على أعلى الشهادات ، وأعظم الدرجات العلمية أو الأدبية .

وما أعجبَ أمرَ أولئك الذين يتشدَّقون بالمدنية يقولونها كلمة جوفاء ، لا يفقهون لها معنى ، فيزعمون أن التبرجَ هو ما تقتضيه مدنية العصر الحاضر ، وأنه عنوان العلم والتحضر والتنور ، وأن الخمار أصبح من مخلفات العصور الغابرة ، لا يتفق مع حضارتنا ، وأنه يحط من قَدر المرأة المتمدنة المثقفة ويصمها بالجهل والتأخر .

والحقيقة عكس ذلك ، فإن السيدة المحتشمة المختمرة طاعة وحياء ، لا تقليدًا ووراثةً ، هي التي عرفت دينها وخافت مولاها ، ومعرفة الدين والخوف من الله هو أعظم علم وأكبر تنوُّر وتمدُّن .

---

(١) رَسَف في القيد يرسف رَسفًا ورَسِيفًا ورَسَفانًا : مشى فيه رويدًا .

والطائشة المتبرجة تدل على أنها لم تعرف الحياء ، وأنها جهلت دينها وربها ، وأنها عرفته وأصرّت على عصيان خالقها ، والجهل بالدين والجرأة على انتهاك حرماته ، هو أعظم جهل وتأخر ، وأكبر بربرية وهمجية وأبعد شيء عن المدنية .

إن المدنية لتتبرأ من قوم مزّقوا ثوب الحياء ، فانظروا معي إلى الإنسان الأول في حياته الوحشية الأولى[1] ، أو إلى الشعوب الزنجية المتوحشة تروا أن أبرز ما تمتاز به هو العُري والإباحية في العادات ، وجدل الشعر والتزين بالريش والعظام والقواقع والحلي البراقة الزاهية ، وتغيير لون الشفاه والخدود والعيون ، وإطالة الأظافر ، والرقص العنيف ، هذه هي مظاهر همجية الشعوب المتأخرة . وهذا ما تقهقرت إليه الشعوب الغربية بخطى واسعة سريعة ، وهي تجرف الشعوب الشرقية المقلدة الغافلة الساذَجة ، التي فقدت شخصيتها حين أعرضت عن تعلم الدين الإسلامي الصحيح من موارده الصافية ، فاتَّبعتها في تأخرها ، لا في تقدمها ، وفي همجيتها لا في مدنيتها ، وسارعت النساء المسلمات إلى تقليد المرأة الفاجرة اللادينية ، وظنَنَّ أن هذا التهتُّك هو ما يستلزمه نظام القرن العشرين ورقيه ، كأن اللّٰه تعالى لا يدري من شئون الحضارات ما يدرين ، وكأن الناس أعرف بما يصلحهم من رب العالمين ، فما أعظم شقاءكن يا من تعبدن (الموضة) ، وتكفرن بكتاب رب الأرض والسماوات .

---

(١) ليس المقصود آدم عليه السلام قطعًا ، والعبارة تحتاج إلى تحرير .

ماذا جرى لعقولكنَّ حتى تفجُرن مع الفاجرات وتقلدنهنَّ تقليدًا أعمى صاغرات ؟! كيف تحترمن تقاليد الفسقة الفجار وتستهترن بشرائع المنتقم الجبار ؟! فإذا أمرت المدنية شيئًا قلتن سمعنا وأطعنا ، ولو كان في ذلك هلاككن وخزيكن في الدنيا والآخرة ، فما كان لامرأة إذا أمرت المدنية أن تكون لها الخيرة من أمرها ، وإذا أمر اللَّه تعالى جادلتنَّ وعارضتنَّ وقلتنَّ : سمعنا وعصينا ، لن نستطيع مخالفة عصرنا ، لا نطيق الخمار في هذا الحر ، ولا نطيق أن نكون عرضة لسخرية الناس . فهل تطقن – أيتها الغافلات – حر نار جهنم ، وأن تكنَّ عرضة لعذاب رب الناس : ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة : ٨١] .

فيا أيتها الذاهلة المقلدة ، التي تقلد غيرها تقليدًا أعمى ، واهمة أن ما يعمله كل الناس لابدَّ أن يكون حقًّا ؛ لأنه رأي الأغلبية الغالبة . لقد جرفك تيار مدنية عصرك الكاذبة وأغرقك سيل الفسق والفجور لأنك أسيرة الهوى ضعيفة الإيمان ، جاهلة بدينك هاجرة للقرآن ، فلو كنت راسخة في العلم بدينك وتشريعه وأوامره لما استحسنت ما ترين عليه النساء ، وَلَقَبُحَ في نظرك ما تقلّدين عن غير تفكير . فإن السيل لا يجرف إلا الغُثَاء والزَّبَد ، أما القوي الراسخ فإنه لا يتزعزع من مكانه ، ولا يستطيع السيل أن يزحزحه مهما كان قويًا جارفًا .

أيتها المسلمة الغافلة :

نساء عصرك استهترن بأحكام اللَّه فلم تقلّدينهنَّ ؟! نساء عصرك

سيدخلن الجحيم ، فلم تحرصين على أن ترافقينهنّ !! ألا تعلمين أن رسول الله ﷺ قال : « **من أحب قومًا حشر معهم** »[1] ، وقال أيضًا : « **من تشبَّه بقوم فهو منهم** »[2] . وقال : « **لا يكن أحدُكم إمَّعة ، يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساؤوا أسأت ، ولكن وطِّنوا أنفسكم : إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم** »[3] ، وهو ﷺ الذي قال أيضًا : « **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون** »[4] .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/٣) ، قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٢٨١) : وفيه من لم أعرفه .

قُلْتُ : قد صح الحديث بلفظ : « المرء مع من أحب » أخرجه البخاري (٦١٦٩) ، ومسلم (٢٦٤٠) عن ابن مسعود ، وورد بلفظ : « أنت مع من أحببت » أخرجه البخاري (٦١٦٧) ، ومسلم (٢٦٣٩) عن أنس .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠٣١) هكذا مختصرًا ، وأحمد (٢/ ٥٠، ٩٢) وغيره مطولاً ، وإسناده مقارب ، وله شاهد عن طاوس مرسلًا ، أخرجه ابن أبي شيبة (٥/٣٢٢) ، انظر : « تغليق التعليق » (٣/٤٤٥- ٤٤٦) ، و« الإرواء » (٥/١٠٩) .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٠٧) عن حذيفة مرفوعًا نحوه ، وسنده ضعيف ، لكن صح معناه عن ابن مسعود موقوفًا بسند حسن ، أخرجه ابن عبد البر في « العلم » (ح١٤٥) .

وانظر : « نقد الكتاني » للألباني (ح٢٥) .

(٤) **صحيح متواتر** : انظر « نظم المتناثر من الحديث المتواتر » (ح١٤٥) .

وأعجب لزعم المتبرجة أنها تتبرج لتكون كبقية الناس ، وحتى لا تمتاز عن غيرها بالاحتشام الذي يستلفت إليها الأنظار ، ويحوطها بالتهكم ونظرات السخرية والاحتقار .

فويحك أيتها المغرورة المتغطرسة كيف تجتنبين الاحتشام ، تخجلين من استلفات الأنظار إلى تقواك وحيائك ، ولا تخجلين من استلفات الأنظار إلى تبرجك واستهتارك ، فأيتهما أولى بالخجل أن تظهري بالأدب والرزانة ، أم أن تظهري بهذا التبرج والاستهتار ؟

كيف لا تخجلين من أن تجهري بالفسق والعصيان وتخجلين من أن تجهري بالتقوى والإيمان ! بل كيف لا تفخرين بامتيازك عن غيرك بالاحتشام ، وتشرفك بآداب وشرائع الإسلام ، فيا للعجب ! أتخجلين مما يشرّف ويبجّل ، ولا تخجلين - بل وتفخرين - بما يحقّر ويسفّل ؟!

أتفسقين مع مَن فسق لتكوني مثلهم ، فلا يسخرون منك ، أتسرقين مع من سرق لئلا يسخر منك اللصوص ؟ أتشربين الخمر لئلا يسخر منك المدمنون ! أتظلمين لئلا يسخر منك الظالمون ؟ أتستبدلين الذي هو شر بالذي هو خير خوفًا من نظرة تهكم من الفسقة العصاة ، وتقدمين رضاهم على رضا اللّه ؟

إن هؤلاء الناس ينظرون إليك ساخرين مدهوشين ، لأنهم لم يروا الاحتشام من أمد بعيد ، ونسوا أوامر الإسلام وآدابه من زمن مديد ، فذكّريهم وعرّفيهم يا سيدتي ما لم يعرفوه ، وكوني قدوة حسنة للنساء

الغافلات ، وسراجًا منيرًا للعيون النائمة والقلوب المظلمة ، وتيهي فخرًا بأدبكِ واحتشامِك ، وازدهي بنور تقاك وإسلامك . فإنك على قمة الكرامة وفي أَوج الفَخار ، وهم في الدَّرك الأسفل من العار . أنت تتبعين سبيل المؤمنين الأبرار ، وهم يتبعون سبيل العصاة الفجار ، فانظري إليهم من عليائك بعين الاحتقار ، ولا تبالي بنظرات السخرية والاستهتار ، وقولي كما قال نوح عليه السلام : ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود : ٣٨، ٣٩] .

وواصلي دعوتك لهم سائلةً اللّٰه توفيقهم كما وفَّقك ، إن الاحتشام لا يمنع الأناقة ، ولا يدعو إلى التهكم ، بل قد يكون التبرج أدعى إلى السخرية ، وبعيدًا عن الأناقة ، وقد يكون الاحتشام في أناقة لا يمكن للتبرج أن يجاريها .

ومما يُدهش له أن تزدري المتبرجةُ المسلمةَ المحتشمة ، كأن قيمة المرأة بأصباغها وطول مخالبها ، لا بكمال عقلها وتقواها وأدبها ، فتسخر الطائشة المقلدة لنساء باريس المتهتكات من التقية المتبعة لنساء النبي المؤمنات .

فهل بلغ حد الكفر والجهل في عصرنا أن يضحك الباطل من الحق ، والجنون من العقل ، والفسق من التقوى ، والتهتك من التعفف ؟!

مهلًا أيتها الساخرات الضاحكات. فإن تضحكن منهنَّ فسيضحكن

منكن غدًا ، والفوز لا يكون إلا للضاحك الأخير : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ * فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين : ٢٩- ٣٦] .

قد يظن الآباء والأمهات أن تبرج بناتهم واستعراض جمالهن يعجل بزواجهن ، فيعرضون لذلك بناتهم كما يعرض التاجر سلعته للبيع ، ولم يفطن هؤلاء الآباء والأمهات إلى أن الذي يطلب الزواج بابنتهم لجمالها ودلالها ، ولا يستنكر تجردها من الحياء والاحتشام ، وخروجها عن آداب الإسلام ، هو رجل فاسق شهواني يبحث عن جسم جميل خليع ليتمتع ، ولا يعبأ ولا يبحث عن قلب سليم تقي ليسعد ، فلن يكون هذا الرجل زوجًا صالحًا كريمًا .

أمّا الرجل الذي يطلب الزواج الصالح من ابنتهم لتقواها واحتشامها ويعجبه حياؤها وتديُّنها ؛ فهو الرجل المسلم المستقيم ، وهو الزوج الصالح الكريم ، ولا سعادة حَقَّة بلا تقوى ولا دين ، فتقوى اللَّه أُسُّ الاستقامة ، والاستقامة أُسُّ السعادة ، ومَن يخش اللَّه لا يُخشى منه ، فزوجوا ابنتكم من التقي ، فإذا أحبها أكرمها ، وإذا كرهها لم يظلمها ، ولا تزوِّجوها من حيوان شهواني ، إذا فرغت منها حاجته ، وأكلها لحمًا طرحها ونبذها عظمًا ، بدون حياء ولا خوف من اللَّه ؛ لأنه إنما كان ينشد المتعة البهيمية

ولا يفهم معنى السعادة الإنسانية .

وأنت أيتها السيدة التي تزعم أنها تتبرج إرضاءً لزوجها ، وتخرج متزينة طاعة لأمره ، أتظنين أن هذا العذر ينفع عند اللَّه بعدما أبطل عذرك بقول رسوله ﷺ : « **لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق** »[1] ، و: « **لا طاعةَ إلا في معروف** »[2] ، قال اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

كيف تغضبين ربَّك الخالقَ لترضي زوجَك الفاسق ، فأيهما أولى بالطاعة والخشية ؟! هذا الزوج الفاسق الذي يأمرك بالفسق والذي لا يستحيي ولا يغار وسيهوي بك وبنفسه في عذاب النار ، تبررين فسوقك بزعم أنك تخافين أن يهجرك إلى غيرك ، أو يطلقك فتُحرمي أولادَكِ وسعادتَكِ ، فهل هذه السعادة البيتية الوقتية أهم وأعظم من سعادة الجنة الأزلية ، فما هي هذه السعادة الموهومة المهددة ؟ بل لو كنتِ مؤمنة عاقلة

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في « الكبير » (١٨/١٧٠/٣٨١) عن عمران ، والبغوي في « شرح السنة » (١٠/٤٤/٢٤٥٥) عن النواس بن سمعان ، وله ألفاظ أخرى قريبة من هذا اللفظ .

وانظر : « الصحيحة » (١٧٩، ١٨٠، ١٨١) .

(٢) **متفق عليه** : أخرجه البخاري (٧٢٥٧) ، ومسلم (١٨٤٠) عن علي ، بلفظ : « لا طاعة في معصية اللَّه ، إنما الطاعة في المعروف » .

ولفظ الكتاب عزاه السيوطي إلى وكيع وابن مردويه . « الدر المنثور » (١/١١٨) .

لعلمت أنه من المحال أن تكون سعادة مع زوج فاسق فَقَدَ صفات الرجولة ، وغفل عن أمر ربه ، بل جاهر بالخروج على الدين والأخلاق .

نعم لو كنت صادقة الإيمان لما شعرت مع مثل هذا الزوج بسعادة تخافين ضياعها ، بل لشعرت بشقوة تتمنين الخلاص منها ولا تطيقين احتمالها ؛ لأنه من المحال أن تنسجم الروح الطاهرة مع الرُّوح الفاجرة ، وأن يحب المؤمن المنافقَ ويوده ، ويسعد بمعاشرته ، كما قال الله تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

فحاولي إصلاح حال زوجك ، معتمدة على الله ، واذكري له أنك ترغبين في أن تكوني له وحده .

وكم غرَّ الشيطان المتبرجات ، زاعمًا لهن أنهن لا يزلن في مَيعَة الشباب[1] وزهرة الصِّبا ، ولم يحن وقت الاحتشام كأن الخمار جُعل لستر الشيب والشيخوخة لا لستر الجمال والزينة .

ولكن كلما كانت المرأة صغيرة وجميلة كانت أدعى للفتنة فيجب

---

(١) ميعة الشباب : أوله .

عليها ستر هذا الجمال والشباب عن أعين الشرهين الفاسقين وعن أعين المؤمنين الورعين، الذين يتألمون من سرقة أبصارهم لجمال ليس لهم حلالًا، ويخشون الله، ويعلمون أنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ومن السيدات مَن تزعم أنها كبيرة في السن، فلن ينظر إليها رجل، وفي الوقت نفسه تتصابى وتتجمَّل وتتزين، وتحاول ما استطاعت أن تصلح ما أفسده الدهر وهي ليست من القواعد كما تَدَّعي، وإنما تفعل ذلك لتبرر عملها، وتبيح تبرجها، مع أن اللَّه تعالى نهى القواعد عن التبرج بزينة، وهي تعلم جيدًا خداعها، وتُوقن أن هناك مِن الرجال مَن هو في سِنها، أو أكبر منها يرغبها ويستحسنها .

ومِن السيدات مَن تزعم أنها دميمة لا تسترعي أنظار الرجال، وهي تقول ما لا تعتقد، وتعمل ما ينادي بكذبها؛ إذ إنها تكثر مِن التجمل والتزيُّن لتخفي هذه الدمامة، فإذا كانت تعتقد حقيقة أنها لن ينظر إليها رجل، فلماذا تحاول إذن ستر هذه الدمامة بالأصباغ والزينة لتستلفت إليها الأنظار، ولماذا لا تسترها بالاختمار والتحجب .

مهلًا يا سيدتي، فأذواق الرجال وميولهم تختلف وتتفاوت، فمن يفضل النحيفة غير من يفضل البدينة، ومن يحب الشقراء غير من يحب السمراء، فتأكدي مِن وجود مَن يستحسنك مِن الرجال، وإن « كل فولة ولها كيَّال »، وإن « لكل ساقطة في الحي لاقطة »، وربما يوجد من يرى دمامتك جمالًا، ويوجد من الرجال الشَّره الذي يشتهي كلَّ امرأة مهما

كانت دميمة ، فالنفس الخبيثة تستسيغ كل طعام ، والنفس المحرومة الجائعة يعجبها أي غذاء ، إذن فلا يجوز لأي امرأة دميمة أو كبيرة أن تتبرَّج ، مهما كان سنها أو شكلها .

كم من حكمة عظيمة في الاحتشام والاختمار والتحجب وعدم الاختلاط لا يفطن إليها إلا العاقل ، فبذلك لا تستر الجمال فحسب ، بل وتستر الدمامة ، فلا تخجل الدميمة من قبحها ، ولا تزدهي الجميلة بحسنها ، ولا يرى زوج الدميمة محاسن غيرها فيتحسَّر على حظه ويحسد غيره ، بل هناك من الرجال - كما قلنا - مَن يصبو إلى مَن هي أدنى مِن زوجه جمالًا ، وكلما رأى نوعًا مِن الجمال تمنّاه ، وكلما رأى حُسنًا لم يمتلكه اشتهاه ، وكره جمال زوجه ، وأصبح لا يرى منه ما كان يراه ، ثم يتوق إلى كل ما لم تمتلكه يداه ، وإلى تذوق كل ما لم يعرفه ولو كان في ذلك أذاه ، فيسعى ما استطاع لإشباع شهوته ، وإرضاء هواه ، ولا يبالي بهتك عرض ولا بشقاء أسرة ، ولا بغضب الله .

فتبرج المرأة ضرر جسيم ، وخطر عظيم ، يخرب الديار ويجلب الخزي والعار ، فكم دعا إلى العداوة والبغضاء بين الأخت وأختها والأخ وأخيه ، وكم فصل الزوج عن زوجه ، وحرمه بناته وبنيه ، وكم خيَّب الآمال ، وحسر قلوب النساء والرجال ، ودعا إلى الحرام وترك الحلال ؟

فأخفي جمالك الفتان أيتها المرأة ، ولا تؤذي النفوس وتغويها ولا تضيِّعي به الآداب والأخلاق وتفسديها ، والزمي حدود ربك ولا

تتعدّيها ، واستري زينتك كما أمرك ربك ولا تبديها .

فما أسعدَ المرأة التي تشعر بأن جمالها بريء لم يقترف إثمًا ولم يؤذِ أحدًا ، ولم يسبب حسرة ، ولم يُثِر شهوة ، ولم تلتهم لحمَها الأنظار ، ولم تَلُك عِرضَها الأفواه .

فجمالك إذا صنتيه كان سعادة ونعمة ، وإذا ابتذلتيه حوَّلتيه شِقوةً ونِقمة .

فكم من جميلة أغراها شيطان جمالها بالانغماس في التبرج والتزين ، والإفراط في الخروج والتجول ، تهيم على وجهها مستعرضة لزينتها في كل وادٍ ، وتجول مستلفتة إليها الأنظار في كل نادٍ ، فذهب شبابها ، وخسرت مستقبلها في الدارين ، ورغب الرجال عنها ، ونفروا منها مستنكرين ، ولم يتزوَّجها واحد ممن كان يحوم حولها متملقًا ، وكان ينظر إلى هذا الجمال العاري معجبًا محملقًا ، بل كان يتزلف إليها ويجزل لها الهدايا ، حتى ظنَّته عاشقًا ، وهي ربما لم تفرط في عرضها ولكنها عملت ما يوجب الشك وكانت مستهترة ، فخسرت بجهلها وطيشها الدنيا والآخرة .

فباللَّه عليك أيتها المتبرجة ، اعلمي أن اللَّه يراك وأنه معك أينما حللت ، ففكري هل هو راضٍ عنك ؟! وتصوري كيف يكون انتقامه منك ؟ فكيف تخدعين نفسك أيتها القاسية على نفسك ؛ إذ تتجاهلين مستهترة ، وأنت على يقين من أن اللَّه يغضب عليك والرسول بريء منك ، والإسلام غريب عنك ، ولن تُعتبري من المسلمات يوم القيامة ،

ولن تدخلي الجنة ، بل ولن تشمي ريحها ، كما قال الرسول ﷺ : « **صِنفانِ من أُمتي مِن أهل النار : قومٌ معهم سِياطٌ كأذناب البقر ، يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، رؤسُهن كأسنِمة البُخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ، ولا يَجِدنَ رِيحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة** »[1] .

لقد اتبعتِ خطوات الشيطان ، وخالفت أوامر القرآن ، وتعدَّيت حدود الرحمن ، واجترأت على الفسق والعصيان : ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء : ١٤] .

فاحذري أيتها المسلمة غضب اللَّه ، فقد سرت مع الهوى ، فلم ترى التبرج ضلالًا وزين لك الشيطان سوء عملك ، فرأيت الحرام حلالًا : ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر : ٨] .

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب يعي ، فيا أيتها الغافلة انتبهي واسمعي ، وأنصتي لآيات الله بقلبك واخشعي ، واقنتي لربك واسجدي واركعي ، ولا تبرجي تبرُّج الجاهلية الأولى ، وبادري إلى التوبة قبل فوات الوقت ، أسرعي ، وأسرعي ، فطوبى لمن اهتدى ، وويل لمن أصر بعد أن دُعي .

---

(١) مسلم (٢١٢٨/١٢٥) ، وأحمد (٢/٣٥٦، ٤٤٠) عن أبي هريرة .

كلمة إلى الرجال

إن واجب الحق والنصح يقتضي أن أوجّه كلمة إلى الرجال ، كما وجهت كلمتي السابقة إلى النساء ؛ إذ ليس النساء وحدهنّ مسئولات عما وصلن إليه من انهيار في الأخلاق بهذا التبرج والتبذل ، بل كان الأحق والأولى أن يُوجّه الكلام كله إلى الرجال ؛ لأن السبب في انتشار داء التبرج واستفحال شره إنما يرجع إلى إهمال الرجل في القيام بواجبه نحو المرأة ، وهذا الإهمال ناشئ عن جهله أو تجاهله أنه مسئول عنها نفسًا وعقلًا وجسمًا ، وأنه قيّم عليها مُكلّف برعايتها أبًا كان أو زوجًا أو أخًا ، كما قال الرسول ﷺ : « **كلكم راعٍ ، وكلكم مسئول عن رعيته** » . [رواه البخاري ومسلم][1] . وأنه مأمور بالقيام على تهذيبها والعناية بخُلقها ودينها ودنياها وآخرتها ، كما قال تعالى : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء : ٣٤] .

وأنه رقيب على أعمالها وأحوالها وتقواها وأدبها ، كما أمره ربه بقوله : ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء : ٣٤] .

---

(١) البخاري (٧١٣٨) ، ومسلم (١٨٢٩) عن ابن عمر .

فما أفسد المرأة إلا فسادُ الرجل واستهتاره بدينه .

فكل امرأة فاسدة إنما دفعها إلى الفساد وفتح لها بابه أبٌ أو زوج فاسد ، لم يعرف اللَّه ربه فعمي عن الصراط السوي ، وجاهر بالخروج على الدين والأخلاق ؛ أو أب أو زوج ضعيف الإرادة مستضعف فَقَدَ نَخوة الرجال وغَيرتَهم ، ضعيف الإيمان متغافل عن أوامر اللَّه مستهين بمعصيته .

فكم من ابنة منكودة شقية أضلها أبوها بضلاله ، وعداها بفساده ! فشبَّت لا تعرف الحياء ولا الدين ؛ إذ نشأت في أحضان الرذيلة ، ولم تعاشر وتخالط إلا الشياطين ، ثم قذف بها ذلك الأب إلى زوج فاجر مثله من الفاسدين المفسدين فراحت فريسة فساد واستهتار الأب والزوج ، وهامت مثلهما في غياهب الضلال ، وساقاها معهما إلى الجحيم .

وكم ابنة بائسة نُكبت بأب ضعيف الإرادة استعبده هواه ، يزعم الإسلام والإيمان باللَّه وكتابه ويصلي ويصوم ويقرأ القرآن ، ولكنه لا يعرف معروفًا ولا يستنكر منكرًا ؛ إذ يعشق التبرج ، ويمقت الاحتشام ، ويسخر من الحجاب ويعتبره قيودًا ثقيلة بغيضة ، تحرم ابنته العزيزة حريتها بجمالها الفتان وشبابها الغض ، فيغريها بالتبرج ويدفعها إلى العصيان بلا رحمة ولا يبالي بغضب الله ، وهو يكرر قوله تعالى في القرآن : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ .

وذلك لأنه أسير الهوى ، مفتون بحب ابنته ، أعمى حبها قلبه وفتن لُبَّهُ ، فأضلها وعصى ربه .

فأعجب لهذا الأب الحنون الذي يشفق على ابنته من الاختمار ، ولا يشفق عليها من غضب اللَّه وعذاب النار .

وأعجب لهذا الأب المغرور المفتون بجمال ابنته ، الذي ينظر إليها متغزلًا مبهورًا ويقدمها لكل العيون مباهيًا فخورًا ، ولا يطيق أن يحبس حريتها في سجن الاحتشام ، وأن يدفن جمالها في قبر الخمار ، كما يدَّعي ، فكأنما بذلك يعترض على اللَّه ويزعم أنه ظلمها ، وينتقد سُنَّة الحكيم الخبير ، كأنه أخطأ سبحانه وأساء التصرف ، فحكم على المرأة بالعذاب والحرمان ، فلو كان هذا المخلوق حقًّا من المؤمنين لما عارض مولاه وخالقه إذا هو أمر أمرًا : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٥١] .

ولو كان حقًّا من المؤمنين لما تجاهل وتغافل عن أمر ربه ولانتفع بالذكرى كما قال تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

فقل لي بربك أيها الأب الذي يزعم الإيمان بالقرآن ، هل من التقوى والإيمان أن تفهم أمر اللَّه بالاختمار والاحتشام ، ثم لا تغضب لتبرج ابنتك ولا تنهاها عن العصيان ؟ وهل من الحب والحنان ألا تبالي بتعرضها لغضب الله وعقابه ، ولا تحاول إنقاذها من مخالب الشيطان ، ألم تسمع

قول الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم : ٦] .

وإنك أيها الأب القاسي أهملت تربية ابنتك الدينية ولم تعبأ بسعادتها الأبدية ، في حين أنك عنيت أشد العناية بمتعها الدنيوية ، وسعيت إلى تعليمها العادات والتقاليد الغربية ، وتركتها ترتع في المدارس على غير هدًى ، تتعلم ما لا ينفعها ، وتعتنق بعصبية مذاهب دعاة السفور والفجور ، وتتشبَّع بآراء محرِّري المرأة ، بل مُضلِّيها ومقيِّديها بأغلال الجهل والعصيان ، لقد أضللتها في سُبُل مظلمة ملتوية من فلسفات عصرية تناهض الأديان ، وتقوم حَجَر عَثرة في سبيل طاعة الله وتنفيذ أوامر القرآن . فما أشقاها ، بل وأشقاك بها يوم تقفان بين يدي الملك الديَّان ؟

وكم زوج وأب يزعم أن منسلم وأنه رجل ، يرافق زوجه وبناته إلى النوادي والملاهي وغيرها ، وهن كاسيات عاريات مائلات مميلات ، يمشين مشية خليعة تهز الصدور والأرداف ، وترسل الشعور تداعب الأعناق والأكتاف ، ليس خجلًا من أن يتهادى بين الغِيد[1] الحِسَان من أهله ، بل يفرح إن استرعى جمالهن الأنظار ، ويفخر بأن تزوج أو أنجب جمالًا جذابًا بهر الأبصار ، ويطيق أن يرى أو أن يسمع التغزل في زوجه أو ابنته ، ولا يبالي بعين ترمقها ، وقد تتبعها نظرة تفحصها ، وقبيحة تسمعها .

(١) الغيد : جمع « غيداء » ، وهي من الفتيات الناعمة اللينة .

فيا للداهية الدهياء ! ترى كَمْ فقَدَ الرجال من رجولتهم حتى أصبحوا أشباه الرجال ولا رجال !! فإن الرجولة شخصية ورُوح وغَيرة ونَخوة ، قبل أن تكون خشونة صوت ، وشاربًا ولحية .

أهذه هي الرجولة – أيها المدَّعي الرجولة – أن تسمح للعيون الدنيئة الطفيلية أن تجسر فتنظر إلى جسم نسائك وتنعم بحسنه ومفاتنه ، وكأن هذا الحُسن وليمة قد قمتَ بالدعوة إليها ، وكأن هذا الجمال مَشَاع بينك وبين غيرك من الرجال حلال مشترك لهم قبل أن يكون حلالك !!

إنك تغضب يا هذا أشد الغضب ممن يحاول أن يطلع على دخائلك وخصائصك ، وتخجل ممن يكشف سرًّا من أسرارك ، فهل هناك أمر أخص بك ، وسر أقدس وأجدر بالصون من جسم زوجك وابنتك ؟!

فويل ، ثم ويل لأولئك الذين لا يعرفون كرامتهم ولا يحفظون رعيتهم ، ولا يحسنون القيام على ما استرعاهم الله من الزوجات والبنات كما أمرهم .

أيها المسلمون :

ماذا جرى لعقولكم حتى رضيتم أن تفجر أمامكم نساؤكم وأنتم تنظرون . ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج : ٤٦] .

فإن أعراضكم كأرواحكم ، وقد فرَّطتم فيها كثيرًا ، أفلا تعقلون ؟

أيها المسلمون :

ما بلغ النساء هذا الحد من الفساد إلا بإغرائكم ، وما اللّه بغافل عما تعملون ، فإنه ولاكم أمر نسائكم لتصلحوا الولاية ، فأسأتم باستهتاركم ، أفلا تتقون .

أيها المسلمون :

لقد أهملتم الرعاية وأغفلتم الحذر ، وشجعتم الغواية وركبتم الخطر ، وإن تُهلكون إلا أنفسكم وما تشعرون ، إنكم لتتمردون على ربكم ، ولا تبالون بغضبه وعقابه ، وتلقون بأيديكم إلى التهلكة ، فهل أنتم منتهون !

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠١]

فاتقوا الله أيها المسلمون ولا تفرطوا في القيام على ما استرعاكم من النساء وولاكم أمرهن بقوله : ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء : ٣٤].

فقوموا بأقدس واجب كلفكم به ، وصونوا أنفس أمانة أمركم بالمحافظة عليها ورعايتها ، وقد حذركم رسول الله ونبهكم إلى مسئوليتكم عنها بقوله ﷺ : « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** » . [رواه البخاري ومسلم] [١] .

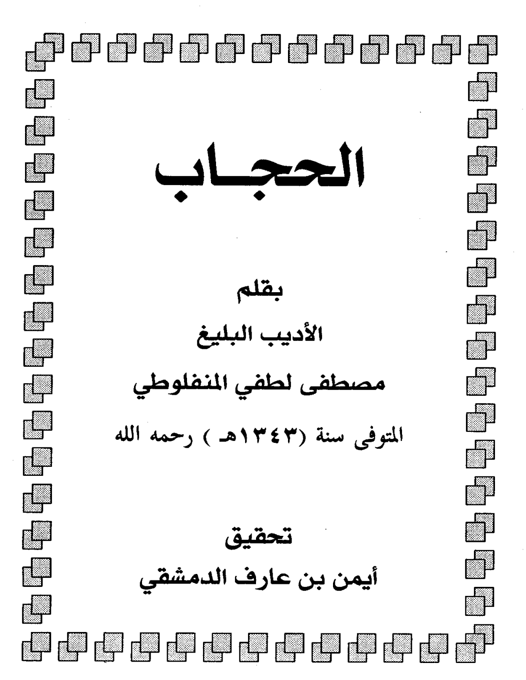
---

(١) تقدم (ص ٤٨) .

فكل أب مسئول عن ابنته ، وكل زوج مسئول عن زوجه ، كما أن كل رجل مسئول عن نسائه وأولاده ، وكل أهل بيته وأسرته ، وكل مسلم مسئول عما كلّفه اللّه به ووضعه في يده وتحت نفوذه وملّكه قياده وزمامه . فمن أرخى الزمام كان مسئولًا عن نتيجة إهماله ، ولن ينجو مستهترٌ من عواقب استهتاره ، ولا مفرّط مقصّر من العقاب على تقصيره ولا مستهين بأمر الله مستخف بغضبه من انتقامه وقصاصه في الدنيا والآخرة ، فتوبوا إلى اللّه جميعًا أيها المسلمون المؤمنون لعلكم تفلحون ، واذكروا دائمًا هذه الآية الكريمة ولا تتغافلوا عنها وتتجاهلوها : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٣١] .

واذكروا دائمًا الوعيد الرهيب في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة : ٢٢] .

* * *



الحجـاب

بقلم

الأديب البليغ

مصطفى لطفي المنفلوطي

المتوفى سنة (١٣٤٣هـ) رحمه الله

تحقيق

أيمن بن عارف الدمشقي

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف[1]

اسمه ونسبته :

مصطفى لطفي بن محمد لطفي بن محمد حسن لطفي ، المنفلوطي ، نسبة إلى منفلوط من مدن الوجه القبلي بمصر .

مولده ونشأته العلمية :

ولد عام ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م) في منفلوط ، من أسرة حسينية النسب ، مشهورة بالتقوى والعلم ، نبغ فيها - من نحو مائتي سنة - قضاة شرعيون ونقباء أشراف ، وتعلم في الأزهر ، واتصل بالشيخ « محمد عبده » اتصالًا وثيقًا .

نبوغه العلمي :

نبغ في الإنشاء والأدب ، وانفرد بأسلوب نقيّ في مقالاته وكتبه ، وله

---

(١) مصادر ترجمته : النظرات ٩- ٣١، الكنز الثمين ٢٦٨، ومشاهير شعراء العصر ١/ ٣٢٠- ٣٤١، والثغر الباسم في مناقب أبي القاسم ٢٩، وعباس محمود العقاد في مجلة كل شيء والعالم ١٩٣١/١/١٧، ومعجم المطبوعات ١٨٠٥، وجامع التصانيف الحديثة ١٣/٢، الأعلام للزركلي (٢٣٩/٧) ، ولمحمد زكي الدين « المنفلوطي : حياته ، وأقوال الكتاب والشعراء فيه » - ط ، ولأحمد عبيد « كلمات المنفلوطي » ط - مذيلًا بخلاصة ما قيل في وصفه وتأبينه .

شعر جيد فيه رقة وعذوبة .

أعماله وكتبه :

كان ينشر مقالات أسبوعية تحت عنوان « نظرات » في جريدة « المؤيد » سنة (١٩٠٧) وبها بدأت شهرته ترتفع . وولي أعمالًا كتابية في وزارة المعارف (١٩٠٩)، ووزارة الحقانية (١٩١٠)، وسكرتارية الجمعية التشريعية (١٩١٣) ، وأخيرًا في سكرتارية مجلس النواب ، واستمر إلى أن توفي .

له من الكتب : النظرات – ط ، وفي سبيل التاج – ط ، والعبرات – ط ، والشاعر – ط ، ومجدولين – ط ، مختارات المنفلوطي – ط . الجزء الأول .

وفاته :

توفي – رحمه اللّه – عام (١٣٤٣هـ – ١٩٢٤م) .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

ذهب فلانٌ إلى أُوروبّا ومَا نُنكِرُ من أَمرِهِ شيئًا فلبِثَ فيها بِضع سنينَ ، ثُمَّ عاد ومَا بقي مما كُنّا نَعرِفُهُ منهُ شيءٌ .

ذهب بوجهٍ كوجهِ العَذراءِ ليلةَ عُرسِها ، وعاد بوجهٍ كَوَجهِ الصَّخرةِ المَلساءِ تحتَ اللَّيلةِ المَاطِرَةِ .

وذَهَب بِقَلبٍ نَقيٍّ طَاهِرٍ يَأْنَسُ بالعَفوِ ويستريحُ إلى العُذرِ ، وعادَ بقلبٍ مُلَفَّقٍ مَدخُولٍ لا يُفارِقُهُ السَّخَطُ على الأرضِ وسَاكِنها ، والنِّقمَةُ على السماءِ وخالِقِها .

وذهب بنفسٍ غَضّةٍ خاشعةٍ تَرى كُلَّ نَفسٍ فَوقَها ، وعادَ بنفسٍ ذَهَّابةٍ نزّاعةٍ لا تَرى شيئًا فَوقَها ، ولا تُلقي نَظرةً واحدةً على ما تحتَها .

وذهب برأسٍ مملوءة حِكمةً وَرَأيًا ، وعادَ برأسٍ كرأس التِّمثالِ المُثَقَّب لا يملَؤها إلا الهواءُ المُتَرَدِّدُ .

وذهب وَمَا على وجهِ الأرضِ أَحبُّ إليهِ مِن دِينهِ وَوَطَنِهِ ، وعادَ وَمَا على وَجهِهَا أصغَرُ في عينهِ منهما !

وكنتُ أَرى أَنَّ هذه الصُّوَرَ الغَرِيبةَ التي يَتَراءى فيها هؤلاءِ الضُّعفاءُ مِنَ الفِتيانِ العائدينَ مِن تلكَ الدِّيَار إلى أوطانِهِم إنما هيَ أصباغٌ مُفَرَّغَةٌ على أجسامِهِم إفرَاغًا لا تَلبَثُ أن تَطلُعَ عليها شَمسُ المشرقِ حتى تنفصِل وتتطايرِ ذَرَّاتُها في أجواءِ السماء ، وأَنَّ مكان المدنيةِ الغربيّة من نُفوسِهم مَكانُ الوجهِ مِن

المرآةِ ؛ إذا انحرفَ عَنها زالَ خيالهُ منها .

فلم أشأ أن أُفارقَ ذلك الصَّديقَ ، وَلَبِستُهُ على عِلاتهِ وفاءً بِعهدهِ السَّابقِ ، وَرجاءً لِغَدِهِ المُنتظَرِ مُحتمِلًا في سبيل ذلك مِن حُمقهِ وَوَسواسهِ وفَسَادِ تَصَوُّراتِه ، وغَرابةِ أطوارِه ، ما لا طَاقَةَ لِمِثلي باحتِمَالِ مِثلِه .

حتّى جاءَني ذاتَ ليلةٍ بداهِيَةِ الدَّوَاهي وَمُصيبَةِ المَصائِبِ ، فكانَت آخِرَ عَهدي به !!

دخلتُ عليهِ فرأيتُه واجِمًا مُكتئِبًا ، فَحَيَّيتُهُ فَأَومَأَ إليَّ بالتحيةِ إيماءً فسألتُه : ما بالُه ؟

فقالَ : ما زلتُ مُنذُ الليلةِ مِن هذِه المَرأةِ في عَنَاءٍ لا أعرِفُ السَّبيلَ إلى الخلاصِ منه ، ولا أدري مَصِيرَ أمري فيه .

قلتُ : وأيُّ امرأةٍ تريدُ ؟

قالَ : تِلكَ التي يُسَمِّيها النَّاسُ زَوجَتي ، وأُسَمِّيها الصَّخرَةَ العاتِيَةَ[1] في طريقِ مطالبي وآمالي .

قلتُ : إنَّكَ كثيرُ الآمال يا سيّدي ، فعن أيِّ آمالِكَ تُحَدِّثُ ؟

قال : ليسَ لي في الحياة إلا أَمَلٌ واحِدٌ ، وهو أن أُغمِضَ عَيني ثُمَّ أفتحَهُما فلا أرى بُرقُعًا[2] على وَجهِ امرَأةٍ في هذا البَلَدِ .

قُلتُ : ذَلِكَ ما لا تَملِكُهُ ، ولا رَأيَ لكَ فيه .

(١) في نسخة : العاتية القائمة .

(٢) هو الغطاء الذي تستر المرأةُ به وَجهَها .

قال : إنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَرَونَ في الحِجَابِ رَأيي ، وَيَتَمَنَّونَ في أمرِه ما أَتَمَنَّى ، ولا يَحُولُ بينَهم وبَينَ نزعه[١] عن وُجوهِ نسائِهم وإبرازِهِنَّ إلى الرِّجالِ يُجَالسِنَهم كما يَجلِسُ بَعضُهُنَّ إلى بعضٍ إلا العَجزُ والضَّعفُ والهَيبةُ التي لا تَزالُ تَلُمُّ بِنَفسِ الشَّرْقي كُلَّما حاوَلَ الإقدامَ على أمرٍ جَدِيدٍ ، فرأَيتُ أَن أكونَ أوَّلَ هادمٍ لهذا البناءِ العاديِّ[٢] القَديمِ الذي وقفَ سَدًا دونَ سعادةِ الأُمَّةِ وارتِقَائِها دَهرًا طوِيلًا ، وأن يَتِمَّ على يَدِي ما لم يَتِمَّ على يَدِ أحدٍ غَيري من دُعاةِ الحرية وأشياعِها ، فَعَرضتُ الأمرَ على زَوجَتي فأكبَرَتهُ وَأعظَمَتهُ وَخُيِّلَ إليها أَنّني جِئتُها (بإحدى النكبات العظام ، والرزايا الجسام)[٣] وزَعَمَت أَنّها إن بَرَزَت إلى الرِّجالِ فإنَّها لا تستطيعُ أن تَبرُزَ إلى النِّساءِ مِن بعد ذلكَ حياءً مِنهُنَّ وخَجَلًا ، ولا خَجَلَ هناكَ ولا حَياءَ ولكنّهُ الموتُ والجمودُ والذُّل الذي ضرَبَهُ اللَّهُ على هؤلاءِ النِّساءِ في هذا البَلَد[٤] أن يَعِشنَ في قُبورٍ مُظلِمَةٍ مِن خُدورِهِنَّ وخمرهن حَتَّى يَأتِيَهُنَّ الموتُ فَينتَقلنَ مِن مَقبرَةِ الدُّنيَا إلى مَقبَرةِ الآخرة ، فَلابُدَّ لي أن أبلُغَ أمنِيتي ، وأن أُعالِجَ هذا الرَّأسَ القَاسِيَ المُتَحَجِّرَ عِلاجًا يَنتَهي بإحدى الحُسنَيَنِ ، إمَّا بِكَسرِهِ أو بِشِفائِهِ !

فَوَرَدَ عَلَيَّ مِن حَديثِهِ ما مَلأَ نَفسي هَمًا وَحُزنًا ، ونظرتُ إلَيه نَظرَةَ الرَّاحِم الرَّاثي ، وقُلتُ له : أعالِمٌ أنتَ أيُّها الصَّدِيقُ ما تَقولُ ؟

قال : نعم ، أقول الحقيقةَ التي أعتَقِدُها وَأدِينُ نَفسِي بها وَاقِعَةً من نَفسِكَ

---

(١) في نسخة : « تمزيقه » . (٢) العادي : كالقديم ؛ نسبة إلى قبيلة عاد .

(٣) في نسخة : « بنكبة من نكبات الدهر أو رزيئة من رزياه » . (٤) يعني مصر .

ونُفُوسِ النَّاسِ جَميعًا حَيثُ وَقَعَت !!

قلت : هل تأذَنُ لي أن أقول لك : إنَّكَ عِشتَ (فترة طويلة)[1] في دِيَارِ قَومٍ لا حِجَابَ بَينَ رِجالِهِم وَنِسَائِهِم ، فَهَل تَذكُرُ أنَّ نَفسَكَ حَدَّثَتكَ يَومًا مِنَ الأيَّامِ وَأنتَ فِيهِم بالطَّمَعِ في شَيءٍ مِمَّا لا تَملِكُ يمِينُكَ مِن أعراض نسائهم فَنِلتَ ما تَطمَعُ فيهِ مِن حَيثُ لا يَشعُرُ مالِكُهُ ؟

قال : رُبما وَقَع لي شَيءٌ مِن ذَلِكَ فماذا تريد ؟

قلت : أريدُ أن أقولَ لكَ : إني أخافُ على عِرضِكَ أن يُلِمَّ به مِنَ الناس ما أَلَمَّ بِأعرَاضِ الناس مِنكَ !

قال : إنَّ المرأة الشريفةَ تَستَطيعُ أن تَعيشَ بينَ الرِّجالِ مِن شَرَفِها وعفتها في حِصنٍ حَصينٍ لا تَمتَدُّ إليهِ المطامع[2].

فَتَدَاخَلَني ما لم أملِكْ نَفسي مَعَه وقُلتُ له :

تلك هي الخُدعَةُ التي يَخدَعُكُم بها الشَّيطانُ أيُّها الضُّعفاءُ ، والثُّلمَةُ التي يَعثُرُ بهَا في زَوَايا رؤوسكُم فَيَتحَدِرُ منها إلى عُقولِكُم وَمَدَارِكِكُم فَيُفسِدُها عَلَيكُم ، فَالشَّرَفُ كَلِمةٌ لا وجود لها إلَّا في قَوَامِيسِ اللُّغَةِ وَمَعَاجِمها ، فإن أرَدنَا أن نفتش عنها في قلوب النَّاسِ وَأفئِدَتِهِم قلما[3] نَجِدُها ، والنَّفسُ الإنسَانيةُ كالغديرِ الرَّاكِدِ لا يزالُ صافيًا رائقًا حتى يَسقُطَ فيه حَجَرٌ ، فإذا هو مُستَنقَعٌ كَدِرٌ .

---

(١) في نسخة : « بُرهة من الزمان » .

(٢) في نسخة : « الأعناق » .

(٣) في نسخة : « فإنا لا » .

وَالعِفَّةُ لونٌ مِن ألوانِ النَّفسِ ، لا جوهرٌ مِن جَوَاهِرها ، وقَلَّما تَثْبُتُ الألوانَ على أشِعَّةِ الشَّمسِ المُتَساقِطَةِ .

قالَ : أتنكرُ وُجودَ العِفَّةِ بين الناسِ ؟

قلتُ : لا أُنكِرُها لأنِّي أعلَمُ أنَّها مَوجُودةٌ بينَ البُلهِ والضُّعفاءِ والمُتكلِّفين ، ولكِنِّي أنكِرُ وُجودَها عِندَ الرَّجُلِ القَادِرِ المُختَلِبِ ، والمَرأةِ الحَاذِقَةِ المُترَفِّقَةِ إذَا سَقَطَ بينهما الحِجَابُ وَخَلَا وَجهُ كُلٍّ مِنهُما لِصَاحِبِهِ !

في أيِّ جوٍّ مِن أجواءِ هذا البَلَدِ تُرِيدونَ أن تَبْرزَ نِساؤُكُم لِرِجَالِكم ؟!

أفي جَوِّ المُتعلِّمينَ وفيهم مَن سُئِل مَرَّةً : لِمَ لَم يَتَزَوَّج ؟ أجَابَ : نساءُ البلد[1] جميعًا نِسائِي !!

أم في جَوِّ الطلبة وَفِيهم مَن يَتَوارَى عَن أعيُنِ خِلانه وأترابه حَيَاءً وَخَجلًا إن خلت مِحفَظَته يومًا مِن الأيام مِن صور عشيقاته وخليلاته ، أو أقفرت مِن رسائل الحب والغرام ؟!

أم في جَوِّ الرعاع والغَوغاءِ وكَثِيرٌ مِنْهم يَدخُلُ البيتَ خادِمًا ذَلِيلًا ، ويَخرُجُ مِنه صِهرًا كَرِيمًا ؟!

وَبَعــــــدُ :

فَمَا هذا الوَلَعُ بقصّةِ المرأةِ ، والتَّمَطُّقُ[2] بحديثها ، والقِيامُ والقعودُ بِأمرِها ، وَأمرِ حِجَابِهَا وسُفورِها ، وحُرِّيَّتِها وَأسرِها ؟

(١) في نسخة : الأمة . (٢) تمطق : ضم شفتيه ، وأحدث صوتًا يدل على استطابة طعم الشيء .

كَأنّما قد قُمتُم بِكُلِّ واجبٍ للأُمّةِ عَلَيكُم في أنفُسِكم فَلَم يَبقَ إلا أن تُفيضوا مِن تِلكَ النِّعَمِ على غَيرِكم !

هَذِّبوا رِجالَكُم قَبلَ أن تُهَذِّبوا نِساءَكُم ، فإن عَجَزتُم عَنِ الرِّجَالِ فأنتُم عَنِ النِّساءِ أعجَزُ .

أبوابُ الفَخرِ أمامَكم كَثيرةٌ ، فَاطرُقُوا أيَّها شِئتُم ، وَدَعُوا هذا البابَ مُوصَدًا فإنَّكُم إن فَتَحتُمُوهُ فَتَحتُم على أنفُسِكم وَيلًا عَظيمًا ، وَشَقاءً طَويلًا .

أروني رَجُلًا واحِدًا مِنكم يستطيع أن يَزعُمَ في نَفسِهِ أنَّهُ يَمتَلِكُ هَواهُ بَينَ يَدَي امرأةٍ يَرضَاها فَأُصَدِّقُ أنَّ امرأةً تستطيعُ أن تَمتَلِكَ[1] هَواهَا بَينَ يَدَي رَجُلٍ ترضاهُ ؟!

إنَّكُم تكلِّفون المرأةَ ما تَعلَمُون أنَّكُم تَعجزونَ عَنهُ ، وتَطلُبونَ عِندَها ما لا تعرفونَه عِندَ أنفُسِكُم .

فأنتُم تُخاطِرونَ بها في مَعرَكَةِ الحياةِ مُخاطَرةً لا تَعلَمون : أتَربحونَها مِن بَعدِها أم تَخسَرونَها ؟ وما أحسَبُكُم إلَّا خاسرين .

مَا شَكَتِ المَرأةِ إلَيكُم ظُلمًا ، ولا تقدمت إلَيكم في أن تَحُلُّوا قَيدَهَا ، وَتُطلِقُوها مِن أسرِها ، فما دُخولُكُم بينَها وبينَ نفسِها ؟ وما تَمَضُّغُكُم ليلَكُم ونَهارَكُم بِقَصَصِها وأحاديثِها ؟!

إنَّها لا تَشكو إلَّا فُضولَكُم وإسفَافَكُم ، ومضايقتكم لها ، وَوقُوفَكُم في

---

(١) في نسخة : « تملك » .

وَجهها حيثُما سارَت ، وأينما حلَّت ، حتى ضاقَ بها وَجهُ الفضاء فلم تَجِد لها سَبيلًا إلَّا أن تسجنَ نَفسَها بنفسِها في بيتِها فَوقَ ما سَجَنَهَا أهلُها ، فَأوصَدَت مِن دونِها بابَها ، وأسبَلَت أستارَها ، تَبَرُّمًا بِكُم ، وفِرارًا مِن فُضولِكم ، فَوَاعجبًا لكم تَسجُنُونَها بِأيدِيكم ثُمَّ تَقِفون على بابِ سِجنها تَبكونَها وَتَندُبُونَ شَقَاءَهَا !!

إنَّكم لا تَرثونَ لها ، بَل تَرثُونَ لأنفُسِكُم ، ولا تَبكُونَ عليها ، بل على أيامٍ قَضَيتُموها في ديارٍ يَسيلُ جَوُّها تَبرُّجًا ، وسفورًا ، وَيَتَدَفَّقُ خلاعة[1] واستهتارًا ، وَتَوَدُّونَ بِجَدعِ الأنفِ لو ظَفرتُم هنا بذلك العَيشِ الذي خلَّفتُموهُ هناك !

لقد كُنَّا وكانتِ العِفَّةُ في سِقاءٍ[2] مِن الحِجَابِ مَوكُوءٍ[3]، فما زلتُم بِهِ تَثقُبُونَ في جَوَانِبِهِ كُلَّ يَوم ثُقبًا ، والعِفَّةُ تَتَسَلَّلُ مِنه قَطرَةً قَطرَةً حتى تَقَبَّضَ[4] وتكرّشَ[5]، ثُمَّ لَم يَكفِكُم ذلك مِنهُ حَتّى جِئتُم اليَومَ تُريدُونَ أن تَحُلُّوا وِكاءَهُ حتى لا تَبقَى فيه قَطرةٌ واحِدَةٌ .

عاشَتِ المرأةُ المصريةُ حقبةٌ مِن دَهرِهَا هادئةً مطمَئِنَّةً في بَيتِها ، رَاضِيَةً عن نَفسِها وعنَ عَيشِها ، تَرَى السَّعادَةَ كُلَّ السَّعادَةِ في واجبٍ تؤديه لِنَفسِها ، أو وَقفَةٍ تَقِفُها بينَ يَدَي رَبِّها ، أو عَطفَةٍ تَعطِفَها على وَلَدِها ، أو جلسَةٍ تَجلِسُها إلى جارَتِها فَتَبُثُّهَا ذاتَ نَفسِها ، وتَستَبِثُّهَا سريرةَ قَلبِها ، وترى الشَّرَفَ كُلَّ الشَّرَفِ

(١) في طبعة : « حرية » .
(٢) السِّقاء : وعاءُ الماء من الجلد .
(٣) أوكَى القِربةَ : شدّ رأسَها بالوكاءِ ، وهو : الرباط .
(٤) تقبّض : تجمع وانطوى .
(٥) في نسخة : « وتضاءل » .

في خُضوعِها لأبيها ، وَائتِمَارِها بِأمرِ زَوجها ، ونُزُولِها عِندَ رِضاهما .

وكانَت تَفهَمُ معنى الحب وَتَجهَلُ معنى الغرام ، فَتُحِبُّ زوجَها لأنَّهُ زوجُها ، كما تُحِبُّ وَلَدَها لأنَّهُ ولدُها ، فإن رَأى غيرها مِن النِّساء أنَّ الحُبَّ أساسُ الزواجِ ، رَأت هي أنَّ الزَّواجَ أساسُ الحُبِّ ، فَقُلتُم لها : إنَّ هؤلاءِ الذين يَستَبِدُّونَ بِأَمرِكِ مِن أهلِكِ لَيسوا بِأكبَرَ مِنكِ عَقلًا ، وَلا أفضَل رَأيًا ، وَلَا أقدَرَ على النَّظَرِ لَكِ مِن نَظَرِكِ لِنَفسِكِ ، فلا حَقَّ لهم في هذا السُّلطانِ الذي يَزعُمُونَه لأنفُسِهم عَلَيكِ ، فازدَرَت أباها ، وتمردت على زَوجها ، وأصبحَ البيتُ الذي كان بالأمسِ عُرسًا من الأعراسِ الضاحِكَةِ مَناحةً قائمةً لا تَهدأُ نارُها ، ولا يَخبوا أوارُها[1].

وقُلتُم لها : لابُدَّ لكِ أن تَختارِي زَوجَكِ بِنَفسِكِ حَتَّى لا يَخدَعَكِ أهلُكِ عن سَعادَةِ مستقبلِكِ فاختَارَت لِنَفسِها أسوأ مِمَّا اختَارَ لها أهلُها ، فلم يَزِد عمر سَعادَتِها على يَومٍ وَلَيلَةٍ ثُمَّ الشَّقَاءُ الطَّويلُ بعدَ ذلك والعَذَابُ الأليم .

وقلتم لها : إنَّ الحبَّ أساس الزَّواج ، فما زالَت تقلب عَينيها في وُجوهِ الرِّجالِ مُصَعِّدَةً مُصَوِّبَةً حَتَّى شَغَلَهَا الحُبُّ عن الزَّوَاجِ ! فعُنِيَت به عنه .

وقُلتُم لها : إنَّ سعادةَ المرأةِ في حَياتِها أن يَكُونَ زوجها عشِيقَها ، وما كانَت تَعرِفُ إلَّا أنَّ الزوجَ غيرُ العشيقِ ، فَأصبَحَت تَطلُبُ في كُلِّ يَومٍ زَوجًا جَدِيدًا يحيي مِن لَوعَةِ الحُبِّ ما أمَاتَ القَدِيمُ . فلا قَدِيمًا استَبقَت

---

(١) الأُوار : حر النار والشمس .

وَلَا جَدِيدًا أفادَت .

وقُلتُم لها : لابُدَّ لكِ أن تَتَعَلَّمي لِتُحسني تَربيَةَ وَلَدِكِ والقيامَ على شئونِ بَيتِكِ ، فتعلَّمت كلَّ شَيءٍ إلَّا تَربِيَةَ وَلَدِها والقِيَامَ على شُئونِ بَيتها !

وقُلتُم لها : إنَّا لا نَتَزَوَّجُ مِن النِّساءِ إلَّا مَن نُحِبُّها وَنَرضَاها ، وَيُلائمُ ذُوقُها ، وشُعورُها شُعورَنا ، فكانَ[1] لابُدَّ لَهَا أن تَعرِفَ مَوَاقِعَ أهوائِكُم ، ومباهج[2] أنظاركم ، لتَتَجمَّلَ لَكُم بِمَا تُحِبُّونَ ، فَرَاجَعَت فِهرس أعمالكم في حياتكم صفحةً صفحةً فَلَم تَرَ فِيهِ غَيرَ أسماءِ الخَلِيعاتِ المُستَهتِرَاتِ ، والضَّاحِكَاتِ اللاعِباتِ ، والإعجابَ بهنَ ، والثناءَ على ذَكائِهِنّ وفِطنَتِهِنَّ فَتَخَلَّعَت واستَهتَرَت لِتَبلُغُ رِضاكُم ، وتَنزِلَ عِندَ مَحَبَّتِكُم ، ثُمَّ مشت[3] إلَيكُم بِهذا الثَّوبِ الرَّقيقِ الشفَّافِ تَعرضُ نَفسَها عَلَيكُم عَرضًا كما (يَعرِضُ النَّخَّاس[4] أمَتَهُ)[5] في سُوقِ الرَّقيقِ فأعرَضتُم عنها ، وَنَبَوتُم بها .

وَقُلتُم لها : إنَّا لا نتزوج النِّسَاء العاهِرَاتِ ، كَأَنَّكم لا تُبالُون أن يَكُونَ نِسَاءُ الأُمَّة جميعًا ساقطَات إذَا سَلِمَت لَكُم نساؤُكم ، فَرَجَعَت أدرَاجَهَا خَائِبَةً مُنكَسِرةً ، وَقَد أباها الخَلِيعُ ، وتَرَفَّع عنها المحتَشِمُ ، فَلَم تَجِد بَينَ يَدَيها غَيرَ بابِ السُّقوطِ فَسَقَطت .

وهكذا[6] انتشرتِ الرِّيبةُ في نُفوسِ الأُمَّةِ جميعًا ، وَتَمَشَّتِ الظُّنُونُ بَينَ

---

(١) في نسخة : « فرأت أن » .
(٢) في نسخة : « ومسارح » .
(٣) في نسخة : « تقدمت » .
(٤) النخاس : بائع الرقيق .
(٥) في نسخة : « تعرض الأمة نفسها » .
(٦) في نسخة : « وكذلك » .

رِجالِها ، ونِسَائِها ، فَتَحاجَزَ[1] الفَرِيقَانِ ، وَأَظلَمَ الفَضَاءُ بينهما ، وَأَصبَحَت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرَّائِي إلَّا رِجالًا مُتَرَهِّبِينَ ونساءً عانِساتٍ .

ذلك بكاؤكم على المَرأةِ أيها الرَّاحِمُونَ ، وهذا رِثَاؤُكم لَهَا ، وَعَطفُكُم عَلَيهَا !

نَحنُ نعلم كما تعلمون أنَّ المَرأةَ في حاجةٍ إلى العلم فَليُهَذِّبها أبُوها أو أخُوها ، فَالتَّهذِيبُ أنفَعُ لَهَا مِنَ العِلمِ ، وإلى اختيارِ الزَّوج العادلِ الرَّحِيمِ فليُحسنِ الآباءُ اختيار الأزواج لبناتهم وَليُجمِل الأزوَاجُ عِشرة نسائِهِم ، وإلى النُّورِ والهواء تبرزُ إليهما ، وتتمتعُ فيها بنعمةِ الحياةِ ، فَليَأذَن لها أولياؤُها بذَلِكَ ، وَليُرَافِقها رَفِيقٌ مِنهُم في غَدَوَاتِها ورَوَحَاتِهَا كما يُرافِقُ الشَّاةَ رَاعِيها خَوفًا عليها مِن الذِّئاب ، فإن عَجَزنا عن أن نَأخُذَ الآباءَ والإخوةَ والأزواجَ بذلك ، فَلنَنفُض أيدِينَا مِنَ الأُمَّةِ جَمِيعِها : نِسَائِها وَرِجالِها ، فَلَيسَتِ المَرأةُ بِأقدَرَ عَلى إصلاحِ نَفسِها مِنَ الرَّجُلِ على إصلاحِها .

أعجَبُ ما أعجَبُ له مِن شُئونِكم أنَّكُم تعلمتم كل شيءٍ إلَّا شيئًا واحدًا هو أدنَى إلى مَدَارِكِكُم أن تَعلَموهُ قبل كل شيءٍ ؛ وهو أنَّ لِكُلِّ تُربَةٍ نَباتًا يَنبُتُ فيها ، وَلكل نباتٍ زمَن ينمو فيهِ .

رأيتم العلماءَ في أوروبا يشتغلون بِكَمَالِيَّاتِ العُلوم بَينَ أُمَمٍ قد فَرَغَت مِن ضروريَاتِها ، فاشتغلتم بِها مِثلَهم في أُمَّةٍ لا يزالُ سَوَادُها الأعظَمُ في حاجةٍ إلى مَعرفةِ حُروفِ الهِجَاءِ .

---

(١) في نسخة : « فتعاجز » .

وَرَأيتم الفلاسفة فيها يَنشُرونَ فلسفة الكفرِ بينَ شُعوبٍ ملحدةٍ ، لها مِن عُقولِها وآدابِها ما قد يُغنيها بَعضَ الغَناء عن إيمانِها ، فَاشتَغَلتُم بِنَشرِها بينَ أُمَّةٍ ضَعيفةٍ ساذَجةٍ لا يُغنيها عن إيمانِها شَيءٌ إن كان هناك ما يغني عنه .

ورأيتم الرجلَ الأوروبيَّ حُرًّا مُطلَقًا يفعلُ ما يَشاءُ وَيَعيشُ كما يُريدُ ؛ لأنَّه يَستَطيعُ أن يَملِكَ نَفسَهُ وخُطُواتِهِ في الساعةِ التي يَعلَمُ فيها أنَّه قَد وَصَلَ إلى حُدود الحُرِّيَّة التي رَسَمَهَا لِنَفسِهِ فلا يَتَخَطَّاهَا ، فَأَرَدتُم أن تَمنَحُوا هذه الحُرِّيَّة نَفسَهَا رَجُلًا ضعيفَ الإرادةِ والعزيمةِ ، يَعيشُ مِن حياته الأدبيةِ على رَأسِ مُنحَدَرٍ زَالِقٍ ، فَإن زَلَّت بِهِ قَدَمُهُ مَرَّةً انحَدَرَ[1] مِن حيث لا يستطِيعُ أن يَستَمسِكَ حتى يبلغ الهُوَّةَ ويَتَرَدَّى في قَرارَاتِها .

ورأيتم الزوجَ الأوروبيَّ الذي أطفأت البيئة غَيرَتَهُ وَأَزَالَت خُشونَةَ نَفسِهِ وحُرشَتَهَا يَستَطِيعُ أن يرى زَوجَتَهُ تُخَاصِرُ مَن تَشاءُ (مِن الرِّجالِ ، وتُرافِقُ)[2] مَن تَشاءُ ، وَتخلو بِمَن تَشاءُ ، فيقف أمام ذلك المشهدِ موقفَ الجامدِ المُتَبَلِّدِ ، فَأَرَدتُم مِنَ الرجلِ الشَّرقِيِّ الغَيورِ المُتَلَهِّب أن يقف مَوقِفَهُ ، وَيَستَمسِكَ استِمسَاكَهُ !

ورأيتم المَرأةَ الأوروبية الجريئة المُتَفَتِّيَةَ في كثيرٍ مِن مَوَاقِفِها مع الرِّجالِ أن تحتفظَ بعِصمَتِهَا[3]! فَأَردتُم مِنَ المَرأةِ المصرية الضَّعيفةِ السَّاذجَةِ أن تَبرُزَ للرِّجالِ برُوزَها ، وتَحتَفِظَ بنَفسها احتفَاظَها !

---

(١) في نسخة : « تدهور » . (٢) في نسخة : « وتصاحب » .

(٣) في نسخة : « بنفسها وكرامتها » .

وكُلُّ نَبَاتٍ يُزرَعُ في أرضٍ غير أرضِهِ ، أو في سَاعةٍ غَيرِ ساعتِهِ ، إمَّا أن تَأْبَاهُ الأرضُ فَتَلفِظَهُ ، وَإمَّا أن ينشَبَ فِيهَا فَيُفسِدَها .

إنَّا نضرعُ إليكُم باسم [الله واضعين أمامكم][1] الشَّرَف الوَطَني والحُرمَة الدينية أن تَترُكوا تلك البقيَّةَ الباقيَةَ مِن نِساءِ الأُمَّةِ مُطمئنَّاتٍ في بُيُوتِهِنَّ ، ولا تُزعِجوهُنَّ بِأحلامِكُم وآمالِكُم كَما أزعجتم مَن قَبلَهُنَّ .

فكل جُرحٍ مِن جروحِ الأُمَّةِ له دَواءٌ إلا جُرحَ الشَّرفِ ، فلَا دَواءَ له ، فإن أبَيتُم إلا أن تَفعلوا ! فَانتَظِرُوا بأنفُسِكُم قَليلًا رَيثَمَا تَنتزِعُ الأيَامُ مِن صُدورِكم هذهِ الغَيرَةَ التي وَرِثْتُموهَا عن آبائِكُم وَأجدَادِكُم لِتَستطِيعوا أن تَعِيشوا في حَياتِكُمُ الجديدةِ سُعدَاءَ آمِنينَ .

فَمَا زَادَ الفَتى عَلَى أن ابتَسَم في وَجهي ابتسامَةَ الهُزءِ والسُّخرِيةِ ، وقال : تلكَ حَماقاتٌ ما جئنا إلا لِمُعالَجَتِها ، فَلنَصطَبِر عَلَيها حَتى يَقضي اللَّهُ بَينَنا وَبَينَها .

فَقُلتُ له : لَكَ أمرُكَ في نَفسِكَ وفي أهلِكَ ، فاصنعَ بِهِمَا ما تَشَاءُ وَائذَن لي أن أقُولَ لَكَ : إنِّي لا أستَطيعُ أن اختَلِف إلى بيتك[2] بعدَ اليومِ إبقاءً عَلَيكَ وَعَلَى نَفسِي ، لأني أعلم أنَّ الساعةَ التي ينفرجُ لي فيها جانبُ سِترٍ مِن أستَارِ بيتِكَ عَن وجهِ امرأةٍ مِن أهلِكَ تَقتُلُني حَياءً وَخَجَلًا .

ثم انصرفت وكان هذا آخِرَ[3] ما بيني وبينه .

---

(١) زيادة لابد منها في السياق .

(٢) أي آتيك مَرة بعد مَرة .

(٣) في نسخة : « هذه فراق » .

وما هي إلَّا أيامٌ قلائل حتى سمعتُ النّاسَ يتحدثونَ أنَّ فلانًا هَتَكَ السِّترَ في مَنزله بينَ نِسائِهِ وَأصدقائِهِ ، وأنَّ بَيتَه أصبَحَ مَغشِيًا لا تَزالُ النِّعالُ خافقةً ببابِهِ .

فَذَرَفَت عَيني دَمعَةً لا أعلَمُ : هَل هِي دَمَعةُ الغَيرَةِ على العِرضِ المُزالِ ، أو الحُزنِ على الصديقِ المَفقُود ؟!!

مَرَّت على تلكَ الحادثةِ ثلاثةُ أعوامٍ لا أزورُهُ فيها ولا يَزُورُني ، وَلا ألقاهُ في طريقهِ إلا قَليلًا فَأُحَيِّيهِ تَحِيَّةَ الغَريبِ للغَريبِ مِن حَيثُ لا يَجرِي لِمَا كان بَينَنَا ذِكرٌ ثُمَّ أنطَلِقُ في سَبيلي ، فإنِّي لَعَائِدٌ إلى منزلي ليلةَ أمسِ ، وَقَد مضى الشَّطرُ الأَوَّلُ مِن الليلِ إذ رَأيتُهُ خارِجًا مِن منزلِهِ يَمشِي مشية الذاهل[1] الحائِرِ ، وبَجانِبِهِ جُندِيٌّ مِن جُنودِ الشُّرطَةِ ، كَأَنَّما هو يَحرُسُهُ أو يَقتَادُهُ ، فَأَهَمَّني أمرُهُ ، وَدَنَوتُ مِنهُ ، فَسَألتُهُ عن شأنِهِ ؟

فقال : لا عِلمَ لي بِشَيءٍ سِوى أن هذا الجُندِيَّ قد طَرَقَ السَّاعةَ بَابِي يَدعوني إلى مَخفرِ الشُّرطةِ ، ولا أعلَمُ لِمِثلِ هذهِ الدَّعوَةِ في مِثلِ هذهِ السَّاعَةِ سَبَبًا ، ومَا أنَا بالرَّجُلِ المُذنِبِ وَلَا المُرِيبِ ، فَهَل أستطيعُ أن أرجُوكَ - يا صَديقي القديمُ - بَعدَ الذي كان بَيني وبَينَكَ أن تَصحَبَني اللَّيلَةَ في وَجهي هذا ، عَلَّني أحتَاجُ إلى مَعونَتِكَ فيما قد يَعرِضُ لي هُناك مِنَ الشُّئونِ ؟

قُلتُ : لا أحَبَّ إليَّ مِن ذلك ؟

وَمَشَيتُ مَعَه صَامِتًا لا أُحَدِّثُهُ ، ولا يَقُولُ لي شَيئًا ، حتَّى شَعَرتُ كأنَّهُ يُزَوِّرُ[2] في نَفسِه كلامًا يُريدُ أن يُفضيَ بِهِ إليَّ فَيَمنَعَهُ الخَجَل والحَيَاءُ ، فَفاتَحْتُهُ

(١) في نسخة : « المضطرب » .
(٢) زوّر الكلام في نفسه : هيّأه .

الحَديثَ وقلتُ له :

ألَم تستطع أن تَتَذَكَّرَ لِهذه الدَّعوةِ سببًا ؟

فنظر إليَّ نظرةً حائرةً وقال : إنَّ أخوَفَ ما أخافُهُ أن يَكُون قد حدث لِزَوجتِي الليلةَ حادِثٌ مُؤلِمٌ ، فَقَد رَابَنِي مِن أمرِها أنها لم تَعُد إلى مَنزِلِها حتى الساعة ، وما كان ذلك شَأنها مِن قَبلُ !

قُلتُ : أمَا كَانَ يَصحَبُها أحَدٌ ؟

قال : لا .

قُلتُ : ألا تَعلَمُ المكانَ الذي ذهبت إلَيه ؟

قال : لا .

قُلتُ : وَمِمَّ تَخافُ عليها ؟

قال : لا أخافُ شيئًا سِوى أني أعلَمُ أنَّها امرأةٌ غَيورٌ حَمقاءُ ، فلعلَّ بعض النَّاس حَاوَل العَبَثَ بِهَا في طَريقها فَشَرِسَت عَلَيه فَوَقَعَت بينَهما وَاقِعةٌ انتهى أمرها إلى مخفر الشُّرَطةِ .

وَكُنا قد وصلنا إلى المَخَفرِ ، فَاقتادَنا الجُندِيُّ إلى قاعةِ المأمُورِ ، حتى صِرنا بينَ يديهِ ، فأشار إلى جُنديٍّ أمَامَه إشارةً لَم نفهمها ، ثُمَّ استَدنى الفَتى إلَيهِ ، وقال له : يُسوؤني أن أقولَ لك يا سيدي : إن رِجالَ الشُّرطةِ قَد عَثروا الليلة في مكان مِن أمكِنَةِ الرِّيبَةِ على رجلٍ وامرأةٍ في حالٍ غَيرِ صَالِحَةٍ فاقتادوهما إلى المخفَرِ ، فَزَعَمَتِ المرأةُ أنَّ لهَا بكَ صِلَةً فَدَعَوناكَ لتَكشِفَ لنا الحَقِيقَةَ في أمرِها ،

وأمرِ صاحبِها ، فإن كانَت صَادِقَةً أذِنَّ لها بالانصرافِ مَعَكَ إكرامًا لَكَ ، وإبقَاءً على شَرَفِكَ ، وإلا فَهِيَ امرَأةٌ عاهرة[1] لا نَجاةَ لَهَا مِن عقاب الفاجِرات ، وهَاهُما وَراءَكَ فانظُرهُما .

وكانَ الجُنديُّ قد جاءَ بِهِما مِن غُرفةٍ أخرَى ، فالتفت وراءه ، فإذَا المرأةُ زَوجَتُهُ ، وإذَا الرَّجُلُ أحَدُ أصدقائِهِ .

فصرخَ صرخةً رَجَفت لها جَوَانِبُ المخفَرِ ومَلأت نَوَافِذَهُ وَأبوابَهُ عُيونًا وآذانًا ، ثُمَّ سَقَطَ في مكانِهِ مَغشِيًا عَلَيهِ .

فَأشَرتُ إلى المأمُورِ أن يُرسلَ المَرأةَ إلى مَنزلِ أبيها ، فَفَعَل ، وأَطلَقَ سَبيلَ صاحِبِها ، ثُمَّ حملنا الفتى في مَركَبةٍ إلى مَنزله ، وَدَعَونا له الطَّبيب ، فَقَرَّرَ أنه مُصابٌ بِحُمّى دِماغيّةٍ شديدةٍ ، ولَبِثَ سَاهِرًا بجانبه بقيّةَ الليلِ يُعالجُهُ ، حَتّى دَنَا الصُّبحُ ، فانصَرفَ على أن يَعُودَ مَتَى دَعَوناه ، وعَهِدَ إليَّ بأمرِهِ ، فَلبِثتُ بجانِبِهِ أرثى لحالِه ، وَأنتَظِرُ قَضَاءَ اللّهِ فيه ، حتى رأيتُهُ يتحركُ في مَضجَعِهِ ، ثُمَّ فَتحَ عَينَيهِ ، فَرآني فَلَبِثَ شاخِصًا إليَّ هُنَيهَةً كَأنَّما يحاولُ أن يقول لي شَيئًا ، فلا يَستطيعُه ، فَدَنَوتُ مِنه ، وقُلتُ له : هَل مِن حاجةٍ يا سيّدي ؟

فأجابَ بصوتٍ ضعيفٍ خافِتٍ : حاجَتي أن لا يَدخُلَ عَلَيَّ مِنَ النّاسِ أحَدٌ .

قُلتُ : لن يَدخُلَ عليك إلا مَن تُريدُ .

---

(١) في نسخة : « قاصرة » .

فَأطرَق هُنَيهَةً ثُمَّ رَفَعَ رأسَهُ ، فإذَا عَيناه مُبتَلَّتَانِ[1] بالدُّموع .

فقلتُ : ما بُكاؤُكَ يا سيدي ؟

قال : أتَعلَمُ أين زوجتي الآن ؟

قُلتُ : ومَاذَا تُريدُ منها ؟

قال : لا شيءَ سِوَى أن أقولَ لها : إنّي عفَوتُ عنها .

قُلتُ : إنها في بَيتِ أبيها .

قال : وَارَحمتاه لها ، وَلأبيها ، ولِجَميعِ قَومِها ، فَلَقَد كانوا قَبلَ أن يَتَّصلُوا بي شُرَفَاءَ أمجَادًا ، فَألبَستُهُم مُذ عَرَفوني ثَوبًا مِنَ العَارِ لا تَبلُوهُ الأيامُ .

مَن لي بمَن يُبَلِّغُهُم عنّي جَميعًا أنّي مَريضٌ مُشرِف[2]، وَأنني أخشَى لقَاءَ اللَّهِ إن لَقيتُهُ بدمَائِم ، وأنني أضرَعُ إليهم أن يَصفَحوا عَنّي ، ويَغتَفروا ذنبي ، قَبلَ أن يَسبقَ إليَّ أجَلي .

لقد كنتُ أقسَمتُ لأبيها يومَ اهتَدَيتُها[3]، أن أصونَ عِرضَها صيانَتي لِحَيَاتي ، وَأن أمنَعَها مِمَّا أمنَعُ منه نفسي ، فَحَنِثتُ في يميني ، فَهَل يَغفِرُ لي ذَنبي فَيَغفِرَ لِيَ اللَّهُ بغُفرانِهِ ؟!

إنها قتلتني ، ولكنّي أنَا الذي وضعتُ في يَدِها الخِنجَرَ الذي أغمَدَتهُ في صَدرِي ، فلا يَسألها أحَدٌ عن ذَنبي !

---

(١) في نسخة : « مخضلتان » .

(٢) أي : على الهلاك .

(٣) اهتدى الرجلُ امرأته : جمعها إليه وضمها .

البيتُ بَيتي ، والزَّوجَةُ زَوجَتي ، والصَّديقُ صَدِيقي ، وأنَا الذي فتحتُ باب بيتي لصديقي إلى زَوجَتي ، فَلَم يُذنِب إليَّ أحَدٌ سِوَايَ .

ثم أمسكَ عن الكلام هنيهة[1]، فنظرت إليهِ ، فإذا سَحَابةٌ سوداء تَنتَشِرُ فَوقَ جبينِه شَيئًا فَشَيئًا ، حتى لَبِسَت وَجهَهُ ، فَزَفَرَ زفرةً خِلت أنَّها خرقت حِجَابَ قلبِهِ ، ثُمَّ أنشَأ يَقولُ :

آهِ ما أشَدَّ الظَّلامَ أمَامَ عَينَيَّ ، وما أضيقَ الدُّنيا في وَجهِي ، في هذِهِ الغُرفَةِ ، على هذا المَقعدِ ، تحتَ هذا السَّقفِ ، كنتُ أراهُما جَالِسَينِ يَتَحَدَّثانِ ، فَتَمتَلِئُ نَفسِي غِبطَةً وسُرورًا ، وأحمَدُ اللَّهَ على أن رَزَقَني بِصَديقٍ وَفِيٍّ يُؤنِسُ زَوجَتي في وحدَتِها ، وزوجةٍ سَمحةٍ كريمةٍ تُكرِمُ صَديقي في غَيبَتي ، فقولوا للناسِ جميعًا : إنَّ ذَلِكَ الرجُلَ الذي كان يفخرُ بالأمسِ بِذَكائِهِ وفِطنَتِهِ ويَزعُمُ أنَّهُ أكيَسُ النَّاسِ وَأحزَمُهُم ، قد أصبَحَ يعترفُ اليَومَ أنَّهُ أبلَه إلى الغايةِ مِن البلاهةِ ، وغَبِيٌّ إلى الغاية التي لا غايةَ وَراءَها !

وَا لَهفًا على أُمٍّ لَم تَلِدني ، وَأبٍ عَاقرٍ لا نَصيبَ له في البَنين[2]!

لَعَلَّ الناسَ كانوا يعلمون مِن أمري ما كُنتُ أجهَلُ ، ولعلهم كانوا إذا مَرَرتُ بِهِم يَتَنَاظَرونَ ويَتَغَامَزونَ ، ويَتَبَسمُ بَعضُهم إلى بعضٍ أو يُحدِّقونَ إليَّ ويُطيلون النَّظَرَ في وَجهِي لِيَرَوا كيفَ تَتَمثَّلُ البَلاهةُ في وُجوهِ البُلهِ ، والغَبَاوَةُ في وُجوهِ الأغبِيَاءِ .

ولعلَّ الذين كانوا يُطِيفُون بي ، ويَتَوَدَّدُونَ إليَّ ويتمسحون بي مِن

(١) في نسخة : « لحظة » .
(٢) يريد : ليتني لم أولد .

أصدقائي إنَّما كانوا يَفعلون ذلك مِن أجلِها لا مِن أجلي ، ولَعَلَّهم كانُوا يُسَمُّونَني فيما بَينَهم وبينَ أنفُسِهم قَوَّادًا ، ويُسمُّون زَوجَتي مُومِسًا ، وَبَيتِي ماخُورًا[1] .

وأنا عند نفسي أشرف الناس وأنبلهم .

فَوارَحمَتاه لي إن بَقِيتُ على ظَهرِ الأرضِ بَعدَ اليوم ساعةً وَاحِدةً ، وَوَالهَفَّا على زَاوِيَةٍ مفردة في قَبرٍ موحش[2] يَطويني ويَطوي عاري مَعِي .

ثُمَّ أغمَض عَينَيهِ وَعَادَ إلى ذُهولِهِ وَاستِغراقِهِ .

وهُنا : دَخلتِ الحجرة مُرضِعُ وَلَدِهِ تحملُهُ على يَدِهَا ، حَتى دنَت به مِن فِرَاشِهِ ، فَتَرَكَتهُ وَانصَرَفَت .

فَمَا زَالَ الطِّفلُ يَدُبُّ على أطرافه حَتى علا صَدرَ أبيهِ ، فَأَحَسَّ بِهِ ففتحَ عَينَيهِ ، فَرَآهُ ، فابتَسَمَ لِمَرآهُ ، وَضَمَّهُ إلى صدره ضَمَّةَ الرِّفقِ والحَنَانِ ، وأدنى فَمَهُ مِن وَجهه كأنَّما يُرِيدُ أن يُقَبِّلَهُ ، ثُمَّ انتَفَضَ فَجأةً ، واستَسرَّ[3] بِشرُهُ ، وَدَفَعَهُ عنه بيَدِهِ دَفعًا شَدِيدًا فَانكَفأ على وَجهِهِ يَبكي ويصيح . وقال : أبعِدُوهُ عَنِّي ، لا أعرِفُهُ ، لَيس لي أولادٌ ولا نِسَاءٌ ، سَلُوا أُمَّهُ عَن أبيهِ ؟ أينَ مكانُه[4]؟ واذهَبوا به إليه ، لا ألبَسُ العارَ في حَيَاتي وأترُكُهُ أَثرًا خالِدًا وَرَائي بَعدَ مَمَاتي .

وَكَانَت المرضعُ قد سَمِعَت صِيَاح الطفلِ فَعَادَت إليه وحملته وذهبت به .

---

(١) الماخور : بيت الرِّيبة .
(٢) في نسخة : « عميق » .
(٣) استتر وخفي .
(٤) في نسخة : « من هو ؟ » .

فَسَمِعَ صَوتَهُ وَهُوَ يَبتَعِدُ عنه شَيئًا فَشَيئًا ، فَأَنصَتَ إليه واستَعبَرَ باكِيًا ، وَصَاحَ :

أرجعوه إليَّ .

فَعادَت بِهِ المرضعُ ، فتناوله من يَدها وَأنشأَ يُقَلِّبُ نَظَرَهُ في وَجهِهِ ويقولُ :

في سبيلِ اللَّه يا بُنَيَّ ما خَلَّفَ لك أَبُوكَ مِنَ اليُتم ، ومَا خَلَّفَت لك أُمُّكَ مِنَ العَارِ ، فاغفِر لَهُما ذَنبَهُما إلَيكَ ، فلقد كانت أُمُّكَ امرأَةً ضعيفةً فَعَجَزت عَنِ احتِمال صدمةِ القضاءِ فَسَقَطت ، وكان أَبُوكَ حَسَنَ النِّيَّةِ في جَريمتهِ التي اجتَرَمَهَا ، فَأَسَاءَ مِن حَيثُ أَرَادَ الإحسَانَ .

سَواء أَكُنتَ وَلَدي يا بُنَيَّ أو ولد الجريمة ، فَإِنِّي قد سَعِدتُ بِكَ بُرهَةً[1] مِنَ الدَّهر ، فَلا أنسَى يَدَكَ عِندي حَيًّا أو ميتًا !

ثُمَّ احتضنهُ إليه وقبّلهُ في جبينه قُبلة ، لا أعلمُ : هَل قُبلَةُ الأبِ الرَّحيم ، أو المحسن الكَريم !

وكان قد بَلَغَ مِنهُ الجهدُ ، فَعَاوَدَتهُ الحُمَّى ، وَغَلَت نَارُهَا في رَأسِهِ ، وما زال يثقلُ شيئًا فشيئًا حتى خِفتُ عليه التلفَ ، فأرسلتُ وَرَاءَ الطَّبيبِ ، فجاءَ وَأَلقَى عَلَيه نَظرةً طويلةً ، ثُمَّ استَرَدَّها مملوءَةً يَأسًا وَحُزنًا .

ثم بدأ يَنزِعُ نَزعًا شَديدًا ويَئِنُّ أنينًا مُؤلِمًا ، فَلَم تَبقَ عَينٌ مِنَ العيون المحيطةِ به إلا ارفَضَّت عن كُلِّ ما تستطيعُ أن تَجُودَ بِهِ مِن مَدَامِعِهَا .

---

(١) في نسخة : « حقبة » .

فَإِنَّا لَجُلُوسٌ حَولَهُ، وقد بَدَأَ الموتُ يُسبِلُ أستَارَهُ السَّودَاءَ حَولَ سَرِيره، وإذا بامرأةٍ مُتَّزِرَةٍ بإزَارٍ أسوَدَ قد دخلتَ الحجرةَ وتقدمت نحوه بِبُطءٍ حتى رَكَعَت بِجَانِبِه ، ثُمَّ أَكَبَّت على يده الممتدة[1] فوق صدره فَقَبَّلَتها ، وأخذت تقول له :

لا تخرُج مِنَ الدُّنيا وأنت مُرتابٌ في وَلَدِكَ ، فَإِنَّ أُمَّهُ تعترِفُ بين يَدَيكَ ، وأنت ذاهبٌ إلى رَبِّكَ تَسأَلُهُ عَن قَولِها أَنَّها وَإِن كَانَت دَنَت مِنَ الجَرِيمَةِ فإنَّها لَم تَرتَكِبها ، فَاعفُ عَنِّي يا وَالِدَ وَلَدي ، واسأَلِ اللَّهَ عِندَما تَقِفُ بينَ يَدَيهِ أن يُلحِقَني بِكَ فلا خَيرَ لي في الحياة مِن بَعدِكَ .

ثم انفَجَرت بَاكِيَةً ، ففتح عَينَيهِ ، وَأَلقَى عَلَى وَجهِهَا نَظرَةً باسِمَةً كانَت هي آخِرَ عَهدِهِ بالحياة ، وقَضَى .

* * *

الآن عُدتُ مِنَ المَقبرةِ بعدَ ما دَفَنتُ صَدِيقي بِيَدي ، وَأودَعتُ حُفرَةَ القَبرِ ذَلِكَ الشبابَ النَّاضِرَ ، والرَّوضَ الزَّاهِرَ .

وجلستُ لِكِتَابَةِ هذِه السُّطورِ ، وأنا لا أَكَادُ أملِكُ مَدَامِعي وَزَفَرَاتي ، فلا يُهَوِّنُ وَجدي عليه إلَّا أَنَّ الأُمَّةَ كانت على باب خَطَرٍ عظيمٍ مِن أخطارِها فَتَقَدَّمَ هو أمامَها إلى ذلكَ الخَطَرِ وَحدَه ، فَاقتَحَمَهُ ، وحيدًا[2] فَنَجَت بِهَلاكِهِ .

* * *

(١) في نسخة : « الموضوعة » .

(٢) في نسخة : « شهيدًا بين يديها » .

المحتوى

الرسالة الأولى

« التبرج »

* * *

المحتوى

الرسالة الثانية « الحجاب »